

نعم الله موجود

بلسان العلم والعلماء والفلاسفة والحكماء

تأليف

الشيخ هشام المقدّم العاملي

دار المحجة البيضاء

نَعَم الله موجود

بلسان العلم والعلماء والفلاسفة والحكماء



تاليف

الشيخ هشام المقدم العاملي

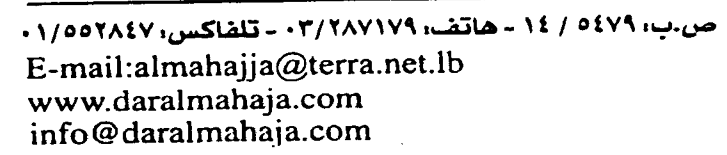
دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م



الرويس ـ مفرق محلات محفوظ ستورز


ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com



الإهداء

أهدي عملي المتواضع هذا إلى حقيقة هذا الوجود ومن ثمّ إلى كل باحث عن هذه الحقيقة راجياً أن أكون خادماً أميناً لهذه الحقيقة ودليلًا ولو بسيطاً إليها، ويؤازرني في ذلك إيماني بهذه الحقيقة ويقيني بها فإن المبصر للشيء من السهل عليه أن يصفه، وغايتي من ذلك مساعدة الجيل الذي اعتمد العلم دليلًا وهادياً له في هذه الحياة طالباً من كل من يقرأ هذا الكتاب ويصل إلى القناعة بما فيه أن يدعو لي فهو أجري على هذا العمل.

مؤلف الكتاب

الشيخ هشام المقدم



المقدمة

اعترضت الإنسان خلال مسيرة الإنسانية عبر الزمن عوائق أعاقت بناء المجتمع الإنساني السليم والمعافى ومنعته من الوصول إلى المجتمع الكامل الذي يلبي الاحتياجات الروحية والجسدية والعقلية للإنسان وذلك لأنّ الإنسان ذو نفس مليئة بالأهواء والتناقضات تسيِّر الإنسان وبالتالي المجتمع إلى غايات مختلفة تبعاً لهذه الأهواء. ثمّ إنَّ نظرة الفرد للكون تختلف من فرد لآخر، وكذلك نظرة الفرد لأخيه الإنسان وللإنسان بشكل عام والتي تختلف بحسبها أهداف المجتمعات وبنيتها وأسسها وقوانينها، فكان لا بد للفكر الإنساني أن يحدِّد النظرة الصحيحة للكون والإنسان والمجتمع. وقد لعب العلماء والفلاسفة والحكماء دوراً في الوصول بالفكر الإنساني إلى هذه الرؤية الصحيحة، وبما أنّ بحثهم تناول الكون والمجتمع والنفس الإنسانية فكان لزاماً عليهم البحث عن هدف وجود هذه النفس وعن الإنسان وأصل وجوده وأصل هذا الكون.

إذاً فمن الطبيعي أن يصل بحثهم عندها إلى الخالق ووجود الخالق وعن علاقة الإنسان بالخالق، فكانت نتيجة هذا البحث مؤثرة في طبيعة

تكوين المجتمع واتجاهاته على كل المستويات لارتباط البنيان للمجتمع بالفكر الذي يبنيه وإعتقاده بوجود الخالق وعدمه ولارتباط تقدم المجتمع بالفكر السليم الذي يحدّد قوانينه ومنهجه وإدارته.

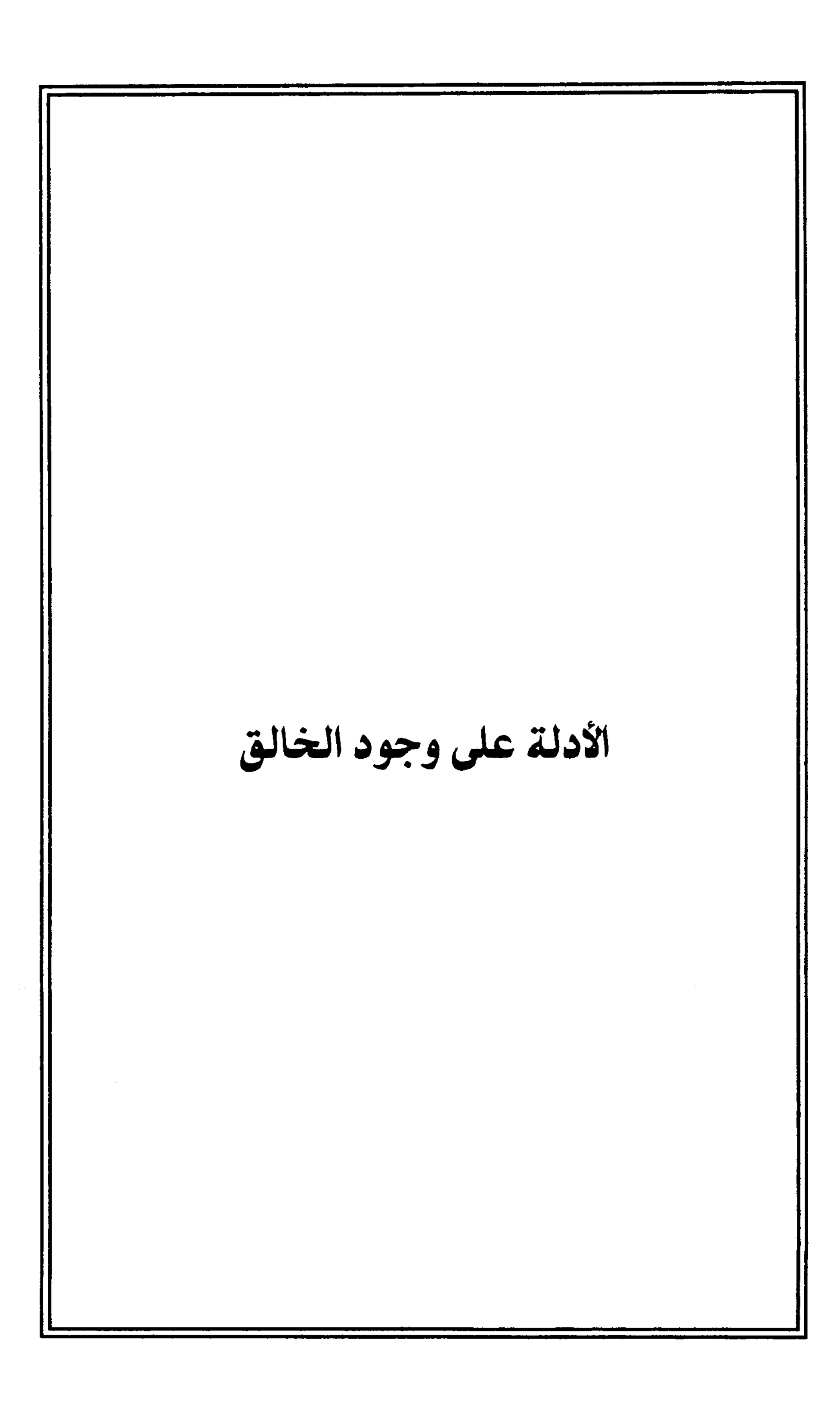
هذا الكتاب يستعرض آراء هؤلاء العلماء والفلاسفة والحكماء واعترافهم بلابدية وجود خالق لهذا الكون وخالق للإنسان لأن الكون والإنسان والمجتمع بحاجة إلى هذا المدبِّر الذي يضمن الحفاظ على المجتمع والإنسان وعلى سيرهما ويكون له القدرة على ذلك لكونه هو الأصلح لإرشاد النفس التي صنعها والإنسان الذي خلقه، وما لذلك من تأثير في حل مشاكل البشرية المتخبطة بسبب البعد عن واضع قوانينها وخالقها وللوصول في النهاية بالنفس الإنسانية إلى الطمأنينة والسعادة التي طالما سعى لها الإنسان. ثمَّ خلال استعراض الآراء نتعرّض بالدليل والبرهان لمسألة وجود الخالق لأنّ هذا العصر يتّسم بأنه عصر العلم والدليل والبرهان فنحاكي هذا العصر بلغته لإثبات ذلك.

هذا في الجزئين الأول والثاني من كتاب نعم الله موجود. أمّا في كتاب من هو الله وبعد إثبات وجود الخالق، نتناول بالتعريف والوصف من هو الله خالق الكون لنقرّب إلى عقل القارىء حقيقة الله تعالى والتي جعلته بجدارة إلهاً للكون، والصفات التي من أجلها سمِّي الله إلهاً، وذلك حتى لا يبقى وجود الله في ذهن الإنسان ضبابياً بل ليؤمن الإنسان بالخالق عن معرفة به لأنّ المعرفة تولِّد عند العقل اليقين؛ واليقين يوصل إلى الإيمان القلبي والروحي فيكون العقل واسطة والعلم مرشداً إلى الله وبالتالي إلى سعادة الروح والنفس التي يبحث كل إنسان عنها.

الجزء الأول

الأدلة على وجود خالق لهذا الوجود ومدبِّر للكون، وتأكيد ذلك على لسان العلم والعلماء





الأدلة على وجود الخالق



الأدلة العقلية

الدليل الأول: لا بدّ من محرِّك للكون

نبدأ بالقول بأنّ الصفات لا يمكن إلا أن تكون موجودة في موصوف يحمل هذه الصفات وهي التي تعطي الخصائص لهذا الشيء الموصوف. فلنتكلم إذاً عن صفتين وهما الحركة والسكون فلا بد أن توجدا في موصوف وهذا الموصوف الذي نبيِّن إحدى خصائصه هو هذه الأجسام الموجودة في هذا الكون، أي الأجسام المادية التي نراها في حياتنا اليومية. فلنُعرِّف إذاً الحركة والسكون ونتكلم عنهما.

- **الحركة**: هي كون الشيء في مكان ثمّ انتقاله إلى مكان آخر بعد سكون تحت تأثير حدث وانفعالات في هذا الشيء.

- **السكون**: هو بقاء الشيء في نفس المكان الذي هو موجود فيه فهو ساكن ثابت.

فنقول: بأنّ الحركة والسكون نقيضان والمعروف بتعريف العلماء والمناطقة بأنّ النقيضان لا يجتمعان في مكان واحد في شيء واحد في زمان واحد. فالبرودة والسخونة أو الموت والحياة لا يمكن أن يجتمعا في شيء واحد في زمان واحد، فالشيء إمّا بارد وإمّا ساخن وإمّا حي

وإمّا ميِّت. وكذلك فإنّ النقيضان لا يرتفعان في الأشياء في زمن واحد بمعنى أنّ الشيء لا يمكن أن يخلو من أحد النقيضين في زمن واحد فالشيء إما أن يكون ميتاً وإمّا أن يكون حياً ولا ثالث لهما فلا يخلو من أحدهما.

إذن كذلك الحركة والسكون فالموجودات التي تتصف بها وتصبح من خلالها واقعاً ملموساً واضحاً حياً إمّا أن تتّصف بالحركة وإمّا بالسكون ولا ثالث غيرهما ولا تخلو من أحدهما، إذن فالأجسام في الكون إمّا ساكنة وإمّا متحركة.

فتصل بعدما عرفنا ذلك إلى المطلوب: فإذا كانت الأجسام ساكنة فما يتحرك حولنا من طلوع الشمس وغروبها وهطول المطر ومياه البحر المتحركة يكذب ذلك فالأجسام ليست ساكنة، إذن فهي متحركة وإذا كانت متحركة ونحن قلنا بأنَّ الحركة تأتي بعد سكون فلا محالة أنّها كانت قبل حركتها ساكنة. فنطرح السؤال مرغمين «من نقل الأشياء من السكون الذي لا بد منه إلى الحركة التي نراها؟» وبعبارة أخرى من الذي حرّكها. فيأتي العقل ليقول بأنّ هناك احتمالين أولها أن تكون الأجسام تتحرّك ذاتياً أي أنّها تحرِّك نفسها بنفسها، وذلك شيء لا يقول به العلم من خلال اكتشافاته الحديثة، إذ المعروف بأنَّ هناك قوى تؤثر على الأجسام فتحركها، وإذا أردت أمثلة فكالقوى المغناطيسية وقوى جاذبية الأرض وغيرها، والثاني أنّ هناك محرِّك لها. فإذا بطل الاحتمال الأول وبدليل العلم وليس فقط الفطرة، فلا بدّ أن نقرَّ معترفين بأنّ هناك محرك لهذه الأجسام وبالتالي لكل هذا الكون.

لا بدّ من محرّك أول:

فلنحكّم العقل أيضاً في المسألة التي ذكرنا ولنجعله حكماً باعتبار أنّه الميزان الذي يعترف به الجميع ولنطرح عليه تتمة المسألة وأنت أيها الإنسان أحكم بعقلك في ذلك:

فإذا كان لكل جسم محرِّك يؤثر عليه وينقله إلى الحركة.

وهذا المؤثر لا بدّ ولا شك أنّه موجود لأنّ الأجسام تتحرّك أمامنا، فهذا المؤثر لا بد أن يكون إذاً متحركاً ليؤثر على الجسم ليتحرك فإذاً لا بدّ له أن يكون أيضاً له محرِّك ليحركه ويعطيه الحياة حتى يؤثر على الجسم المتحرك الأول وهذا المحرّك الثاني لا بدَّ له من محرّك ثالث وهكذا إلى ما لا نهاية وهذا التسلسل إلى ما لا نهاية باطل ومستحيل. فلا بد أن نصل إلى محرّك أساسي لكل ما يتحرك وهو المحرك الأول للموجودات وهو الذي يحرّك كل شيء بطريقة مباشرة وغير مباشرة، والأهم في المسألة «أنّه لا بدّ أن يكون هو المحرِّك لنفسه ولذلك فوجوده ضروري لأصل الحركة في الكون وليس بحاجة لشيء ليحركه، فهو غير محتاج لغيره والكل محتاج إليه في وجوده وحركته ولذلك سمّاه الفلاسفة والمناطقة بواجب الوجود» لنفسه ولغيره أو بشكل آخر ضروري الوجود لنفسه ولغيره وهو المحرّك لهذا الكون الشاسع العظيم.

فنستخلص أنّه لا بدّ من وجود موجود عظيم ذو قدرة مطلقة وقوة عظيمة فوق كل القوى التي يتصورها البشر لا يحتاج في وجوده لغيره والكل بحاجة له لأنّه لا وجود ولا حركة لأي شيء بدونه وهو ما نسمّيه

الإله وهو إله حقاً لما عرفت عنه ولولاه أيها الإنسان لكنت ميتاً بلا حركة.

ويأتي الإلهيون ليؤكدوا ذلك ويتحدثوا على لسان تلميذ نبي الإسلام محمد ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول[1]:

«إنّ الأجسام لا تخلو من أن تكون مجتمعة أو متفرقة أو متحرِّكة أو ساكنة» فإذا كانت الأجسام حولنا متحركة فيجب علينا أن نبحث عن هذا المحرِّك للكون لنكون مخلصين للحقيقة، حقيقة وجود هذا الكون وحقيقة الخالق لهذا الكون لأنَّ معرفة الخالق تعطي قيمة لحياة الإنسان وتعطي معنًى لوجوده وتساعده على تحديد هدفه وطريقة سيره.

الدليل الثاني: حدوث الكون أو بدء الخلق دليل:

إذا أردنا إعطاء الدليل على ضرورة وجود موجد لهذا الكون فلا بد من المرور بفكرنا وأن نجول بأبصارنا وبصائرنا على هذا الكون الشاسع المعقّد الدقيق الصنع، ونتساءل أنّه إذا لم يكن هذا الكون موجوداً، ماذا سيكون حينها؟ عدم أبدي؟ عدم مطلق؟ والعدم الأبدي المطلق لا يتقبله العقل وينفر من هذه الفكرة أيضاً لأنها تضعه أمام حائط مسدود.

ونتساءل أيضاً قبل هذا الكون ووجوده ماذا كان هناك؟ عدم مطلق؟ أيضاً هو تصوّر ينفر منه العقل ولا يتقبله. كوكبنا هذا هل هو قديم أزلي وكذلك المجرات التي تحيط بنا؟ هل هناك نقطة بداية وانطلاق لكل شيء؟ وللإنسان؟ فللمساعدة على الإجابة لا بد من المرور على مسألة

(١) المصدر من نهج البلاغة.

حدوث الكون أي إيجاد هذا الكون وخلق كوكبنا والمجرات التي تدركها أبصارنا وتوصّل إليها علم الإنسان.

فنبدأ بالجواب فنقول: إن الوجود أو وجود الشيء ليس معناه إلا الإنتقال من مرحلة اللاوجود أي العدم إلى مرحلة الوجود أو الحياة فهذا يعني «أنّ كل موجود يجب أن يكون مسبوقاً بالعدم وإلا كان قديماً أزلياً موجِداً» فهذا ينطبق على العالم الذي نعيش فيه وهو ما يسمّيه علماء الكلام بحدوث الكون وأنَّه كان مسبوقاً بالعدم ثمّ خرج إلى الوجود فالكون إذاً ليس قديماً أزلياً بل هو حادث وله نقطة بداية وانطلاق وهذا هو معنى الوجود له. فكل شيء يجب أن يكون مسبوقاً بالعدم ليوجد، فإذا كان الكون كذلك ليتحقق وجوده وإلا يصبح موجِداً وهذا مستحيل على الكون أن يكون قد أوجدنا، فمن الذي أخرجه من العدم إلى الوجود؟. فهل هو أظهر نفسه وأخرج نفسه إلى الوجود؟ فايضاً أقول لك أنّ العلم أثبت بأنّه لا يمكن لشيء أن يوجد نفسه بنفسه، فكل شيء له أصل لوجوده، وهذا ما سيؤكده كلام كبار العلماء فيما سيأتي إذاً فلا بد من قوة وقدرة تخرج الأشياء من العدم إلى الوجود وأن تكون هذه القدرة عظيمة مبدعة لعجيب الخلق الظاهر أمامنا ودقة تكوينه وشدّة النظام الذي يميزه وهذه القدرة العظيمة المبدعة الخلاقة التي هي حتماً فوق تصور البشر ليست إلا الإله الخالق لهذا الوجود وهو الله الذي أخذ عنه الأنبياء عليهم السلام حقيقة حدوث الكون ووصفته الرسل. أمّا إذا قلت لي بأن الكون قد أوجد نفسه بنفسه فسأقول لكل إذن إنّ عقلك هو قد أوجد نفسه بنفسه وهو يملي عليك ما تفعل وتقول فهل ستصدق ذلك؟.

فنعود ونقول بأنّه لا بدّ من قدرة تخرج الأشياء من العدم إلى الوجود

وهذه القدرة هي ضرورية الوجود لتفسير مبدأ خلق الكون وبداية الحياة وانطلاقة الإنسان وهو ما يسميه العلماء بدء الوجود وإلا لظلَّ الإنسان يتخبط في قلق فكري يبعد هذا الإنسان عن الحقيقة وعن أصل وجوده.

تتمة الدليل الثاني: «لا بدّ من مُوجِد لم يوجده أحد»:

قد بيّنا كيف أنّ النقيضين لا يجتمعان في مكان واحد في زمان واحد ولا يرتفعان بمعنى أنّه لا يخلو شيء من أحد النقيضين في الأشياء كالموت والحياة فإنّ الأشياء إمّا ميتة وإمّا حية ولا ثالث غيرهما فلا يمكن أن يكون الشيء حي وميت في نفس الوقت فهو الاجتماع المستحيل، ولا يمكن أن لا يكون حياً ولا يكون ميتاً فهذا الارتفاع المستحيل أيضاً، ولننطلق على هذا الأساس في نقيضين هما الوجود والعدم أو هما الوجود واللاوجود ولننظر إلى ما حولنا:

فكل ما حولنا يجب أن يتّصف بإحدى هاتين الصفتين لأنّنا قلنا بأنّ الصفات لا بدّ أن تحل في موصوف والأشياء هي الموصوفات فالأشياء إمّا موجودة وإمّا معدومة ولا ثالث غير ذلك، ومن خلال التحسس والإدراك ندرك أنّ الأشياء التي حولنا هي موجودة فعلاً فهي تتصف بالوجود أما الأشياء التي تتصف بالعدم فهي أصلاً لم توجد فهذا شيء واضح.

ونعود فنقول بأنّ الوجود هو ظهور الشيء من بعد عدمه أو الانتقال من العدم إلى الوجود فكل وجود يجب أن يسبقه العدم وإلا فكيف يوجد الشيء إذا لم يكن معدوماً قبله. ثمّ لنبسّط المسألة بمثال واضح وهو أنّه كيف يكون الشيء ساخناً إذا لم يكن بارداً قبله وكيف يكو

الشيء ميتاً إذا لم يكن حياً قبله فنفهم أنّ كلّ شيء كان مسبوقاً بالعدم وهذا ما أكدناه في مسألة حدوث الكون وبدء الخلق. فيأتي السؤال الذي لا بدّ منه وهو أنّه من أخرج كل هذه الموجودات من العدم إلى الوجود؟.

العقل يبدأ بالإجابة فيقول بأنّ هناك احتمالين فإمّا أن تكون هذه الأشياء قد أوجدت نفسها بنفسها وإمّا أن يكون هناك قوة أخرجتها إلى الوجود. فأن تكون قد أوجدت نفسها بنفسها فليس هناك عاقل ولا جاهل، متعلّم صاحب علم أو أمّي صاحب فطرة حية ممكن أن يقول أو يصدق ذلك، وقد قلنا في الكلام عن بدء الخلق بأنّ العلم ينفي ذلك وسنستعرض كلام العلماء ذوي الشهرة الذي يؤكد ذلك. إذاً فلا يبقى إلا الإحتمال الثاني وهو أنّ هناك قوة وقدرة هائلة فوق تصورنا أخرجت هذا الكون من العدم إلى الوجود.

فلنتابع على هذا الأساس فإذا كان هناك من أوجد الأشياء فمن أين وُجد هذا الموجود؟ فتقول لي ربما أوجده آخر فأعود لأطرح عليك السؤال فمن أين وُجد الآخر ومن أوجده؟ وهكذا نتابع السؤال إلى ما لا نهاية وهذه السلسلة باطلة ومستحيلة لأنها توصل إلى طريق مسدود. إذن فمن أوجد، أول موجود وكل الموجودات؟ فيأتي الجواب بأنّه لا بدّ أن نصل إلى موجد أساس لكل الوجود وموجد أول لكل الموجودات ليس بحاجة أن يوجده أحد ووجوده من نفسه، وهو أزلي قديم لم يسبقه العدم حتى يصدق عليه أنّه يوجد بل هو كائن من الأزل لم يسبقه عدم ولا مخلوق ولذلك عرّفت هذه القدرة نفسها في قرآن

المسلمين بالقول[1] بسم الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ صدق الله العظيم فأنّه سبحانه لم يولد أي أنه كان من الأزل.

وذلك لأنّه أوجد كل شيء ولم يوجده شيء وهو لا يحتاج لأحد في وجوده والكل محتاج إليه.

وهنا نصل إلى نفس النتيجة عندما تكلمنا عن الحركة والسكون أنّه لا بدّ ومن الضروري وجود مُوجد أساس للموجودات لا يحتاج أن يوجده أحد وهو يوجد كل الموجودات وإلا لبقي كل هذا الوجود في العدم ولما كانت خُلقت هذه الدنيا وهو مُوجد له قدرة عظيمة ويكون رأس السلسلة في الوجود وكل شيء صادر عنه وإلا لبقي سؤال من أوجد الموجد بلا جواب. وتأتي الأنبياء والرسل عبر التاريخ لتؤكد بأنّ هذه القدرة هي الله سبحانه الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام بحسب حساب الله أو حساب الإنسان فإنَّ الله على كل شيء قدير.

دليل على بدء الخلق أو الحدوث إذا فعلّتهُ موجودة قبله:

وضّحنا في الدليل الثاني بأنه لا بد من وجود مُوجِد لا ينطبق عليه بأنّه وُجد فهو لا ينطبق عليه معنى الإيجاد وهو الخروج من العدم وهو ضروري الوجود لغيره لأنّ كل شيء صادر عنه فهو أول الوجود ورأس السلسلة. فلو فرضنا بأنّ هذا الكون أزلي قديم موجود من الأزل ونحن قلنا بأنّه لا يمكن للكون أن يُوجد نفسه بنفسه بل لا بد من قدرة أن توجده وقلنا بأنَّ هذه القدرة يجب أن تكون أزلية قديمة لم يسبقها

(١) القرآن الكريم - سورة الإخلاص، الآيات: ١ - ٤.

شيء، فهي أساس الوجود ولم يوجدها شيء إذاً فلا شيء قبلها. فإذا كان الكون قديماً أزلياً لم يسبقه شيء والموجد له قديماً أزلياً في نفس الوقت، فكيف تتزامن وتقترن العلة مع المعلول ونحن نعرف بأن العلة تسبق المعلول فليس هناك دخان قبل النار وليس هناك نور قبل ظهور الشمس، فمن البديهي أنّ الموجد القديم الأزلي الذي هو علة وجود الكون قد سبق وجود الكون ليوجده، إذاً فالكون ليس أزلياً.

وإذا سبقه وجود الموجِد وهو مصدر الوجود فمعنى ذلك بأنّ الكون قد صدر عنه فالكون إذاً حادث لم يكن موجوداً سبقه الخالق في الوجود وأوجده فينطبق عليه معنى الوجود بأنّه كان مسبوقاً بالعدم ثمّ أوجده موجد. ويأتي العلماء ليؤكدوا ما نقول حين توصلوا إلى وضع مقدار زمني لعمر الأرض التي نعيش عليها وهذا دليل على أن الكون ليس أزلياً بل له بداية وقد توصلوا أيضاً إلى معرفة عمر الصخور وكثير من الموجودات كالنبات والعناصر، وهذا يدل بأنّ للكون بداية فلا بدَّ له من مُوجد ونزيد ونقول بأنّ له نهاية أيضاً لأنَّ الذي كوّن الكون أخبر بأنّ له نهاية وعلى الأقل الأرض التي نعيش عليها، وهذا دليل على أنّ الذي خلق هو الذي يتصرف بالكون وقد أرسل الأنبياء ليحذروا الناس ويعلموهم ما خفي عليهم عن هذه القدرة العظيمة. فهل من مستمع؟.

الدليل الثالث: ضرورة وجود واجب للوجود

«فلو أن كل موجود كان ممكناً لبقي الوجود في العدم»

لقد بيّنا معنى واجب الوجود لذاته ولغيره والذي وجوده ضروري لغيره ولنفسه وهذا المصطلح قد تكلم عنه الحكماء والفلاسفة وليس فقط الأنبياء عليهم السلام والآن سنتكلم عن مصطلح ممكن الوجود في تقسيمات الوجودات. فممكن الوجود هو الشيء الذي وجوده ليس ضرورياً لغيره لأنّه لا يوجِد شيئاً ولذلك ممكن أن يوجد وممكن أن لا يوجد فعنده إذن قابلية الوجود وقابلية البقاء في العدم وهذه الصفة هي لكل الموجودات المخلوقة التي نراها حولنا. فمثلاً الطعام في المنزل فممكن أن يوجد إذا أعدّته سيدة المنزل وممكن أن لا يوجد إذا لم تصنعه، وذلك يعود إلى إرادتها ومشيئتها وإلى وجود الظروف المهيئة لصنعه من لوازم وحاجيات، فالطعام يسمّى ممكن الوجود .

فلنعد إذن إلى الموجودات في هذا الكون حولنا فطالما أنها كلها ممكنة الوجود فهي ممكن أن توجد وممكن أن لا توجد، ولكنها واقعاً موجودة وهي لا تستطيع أن توجِد شيئاً فإذا كان الطعام في المنزل يتعلق بإرادة ومشيئة ربة المنزل والزهرة تتعلق بإرادة ومشيئة الزرّاع المنعم عليها فكل هذه الموجودات الممكنة الوجود والتي لا توجِد شيئاً والمعقّدة التركيب والصنع كالشمس والقمر والنجوم والأرض، وهذه الدقة في الصنع فبمشيئة منْ وإرادة منْ خرجت إلى الوجود؟ ومن هو ربها الصانع لها والمنعم عليها ولولاه لما كانت هذه الموجودات موجودة طالما أنّها كلها لا تخلِق شيئاً وليس إلا لأنّها كما قلنا ممكنة الوجود. فهل هذا الكون أظهر وصنع نفسه بنفسه؟ فنعود ونقول أنّه

وكما أثبت العلم أيضاً أن ذلك غير ممكن «فأين الإدراك والفكر في الماديات الموجودة حولنا لكي تستطيع القيام بذلك فالموجودات المادية التي تحيط بنا لا إدراك لها ولا فكر» ووحده الإنسان يملك ذلك الإدراك والفكر ومن الأكيد أنّ الإنسان لم يصنع لا الموجودات ولا نفسه.

إذن فمن الضروري ولا بدّ أن يكون هناك واجب الوجود لغيره ولنفسه أي مُوجد لغيره وموجود بذاته وليس بحاجة لمن يوجده «وإلا لو كان كل شيء في الوجود ممكن الوجود وهو محتاج لمن يوجده، ولم يكن هناك واجب الوجود ليس بحاجة أن يوجده أحد وهو يُوجد غيره لما كانت كل هذه الممكنات في الوجود قد ظهرت ولكان كل هذا الكون ما زال في العدم».

فهذا الواجب الوجود ليس إلا الإله الصانع للكون ولم يسمَّى إلهاً إلا لأنّه غنيّ عن غيره موجود بلا بداية لكي يوجده أحد، كان منذ الأزل ولا شيء قبله كان حين لم يكن هناك شيء في الوجود وكل الموجودات صدرت عنه.

أمّا الإلّهيون فهم في طمأنينة في الفكر فهم يؤمنون بهذا الإله الموجِد العظيم. فاستمع إلى إبن بنت نبي الإسلام محمد ﷺ وهو علي بن موسى الرضا عليه السلام حين سُئِل عن الدليل على خلق الكون فأجاب عليه السلام [1]: «أنت لم تكن ثمّ كنت، وقد علمت أنّك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك» فهذا استدلال بأنّ كل إنسان يعلم بأنّه

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

مخلوق لأنّه هو نفسه يعلم أنّه لم يكن موجوداً ثم وُجد ويعلم أنّه لم يخلقه من هو مثله لأنّه أدرى بقدراته ومن خلال إدراكه لصنعه العجيب، وبذلك يعترف الإنسان بأنّه لا يمكن لممكن الوجود أن يُوجد من هو ممكن الوجود مثله لقدرته المحدودة وللنقص الموجود فيه، فكيف يمكن للناقص أن يخلق التام وكيف يمكن للضعيف أن يخلق القوي فهذا خلاف العقل والمنطق. إذن فلا بد من وجود مُوجد لهذا الإنسان ولبقية الكائنات والموجودات الضعيفة الناقصة، ولا بد أن يكون ذو قدرة مطلقة وقوة متينة وهذا هو الله الذي يتكلم عنه الإلهيون وهذا ما أراد الإمام الرضا عليه السلام إفهامه للسائل، ولك أيها القارىء ولكل منْ يبحث عن الحقيقة.

الدليل الرابع: «لا بدّ من وجود مُوجد أزلي قديم ليس قبله شيء»:

عرفنا بأنّ هذا الكون الذي نعيش فيه حادث أي أنّه قد حدث، كان في حالة العدم ثمّ وُجد كان في اللاوجود ثمّ ظهر إلى الوجود، وعرفنا أنّ كل الموجودات هي ممكنة الوجود فإذا وجدت الإرادة والمشيئة لإظهارها إلى الوجود واجتمعت أسباب ظهورها ظهرت بقدرة مُوجِدها فلكل شيء في هذا الكون ولكل الموجودات نقطة بداية.

فلنبدأ من هذه النقطة بأنّ كل شيء له بداية. فكل موجود قد حدث هناك منْ أوجده ومن الطبيعي أنّ هذا الذي أوجده قديم بالنسبة إليه، وهذا القديم المُوجِد هناك من أوجده إذنْ فهناك منْ هو أقدم منه لأنّه كما قلنا لا يُمكن لشيء أن يوجد نفسه بنفسه، وهذا الأقدم من القديم

هناك منْ أوجده فهو أقدمْ من الأقدم ومن القديم وهكذا لو استمرينا رجوعاً إلى الوراء لترتيب الموجودات في هذا الوجود كما لو كنا نريد أن نعرف أصل أسرة من الأسر فنقول زيد أب عمر فهو أقدم منه وبكر أب زيد فهو أقدم من زيد وعمر وهكذا فلا بدّ أن نصل إلى الفرد الذي هو أصل كل العائلة. إذن فلو استمرينا رجوعاً في ترتيب الموجودات في القِدم لاستمرت هذه السلسلة إلى ما لا نهاية إذ أنّه كل قديم مهما كان قديماً سنجد أنّه هناك من هو أقدم منه . . وقبله، فهذه السلسلة باطلة ومستحيلة فلا بد للخروج من ذلك أنْ نصل وأن يكون هناك من هو قديم بالمعنى الحقيقي أي لم يكنْ هناك شيء قبله وكل شيء في الوجود قد حدث بعده بل الحقيقة أنّ كل شيء حادث عنه ومنه وليس هناك منْ هو أقدم منه ليُوجده بل هو موجود بنفسه، لمّ يسبقه العدم وكان منذ الأزل وهو الذي بوجوده نفى العدم وإلا لما كنّا نحن موجودون ولا كان هناك شيء في الوجود ولكان العدم هو السائد. فهلْ تتصوّر ذلك!.

العدم الأزلي لا يوجد مع الإله الأزلي القديم:

إذا أردنا أن نقول بأنّ العدم أزلي قديم لم يكن معه شيء فهو ببساطة نفي أي وجود عدا العدم منذ القدم، ونحن نعلم أنّ العدم لا يخلق شيئاً ولا يصدر عنه شيء فالعدم هو عدم أي فاقد الوجود فهو فاقد القدرة عليه، إذن فمن أين أتى كل هذا الوجود الذي نراه ومن أين أتينا نحن. ثمّ قلنا بأنّ العقل يرفض هذه الفكرة ولا يتقبلها وهذا إن دلّ على شيء يدلّ أنّ العقل الذي هو جزء من هذا الوجود الذي يريد أن ينفي وجوده

يؤمن بالبديهة عدم صحة ذلك، فكيف ينفي وجوده وهو موجود فهذا لا يحتاج إلى إعمال فكر ولا يحتاج إلى أدلة. فإذا كان العقل ير فض فكرة وجود عدم أزلي فهو يقرّ ويعترف بوجود قدرة تنفي هذا العدم لأنّه مع عدم وجودها فهذا اعتراف بأنّ العدم سيستمر، والموجودات تكذِّب ذلك. إذن فهذه القدرة موجودة وهي قديمة وأزلية لأن العدم إذا كان قديماً أزلياً فلا يصدر شيء عنه، وهو بالنتيجة يعترف ويقرّ بأنّه لا بد من وجود مُوجد أزلي قديم أوجد هذا الوجود وصدرت عنه الموجودات وهو لم يصدر عن شيء بل هو أصل نفسه ووجوده في نفسه انتفى العدم لوجوده» ولذا قال علماء الكلام والفلاسفه بأنّ الله لم يسبقه العدم. ثمّ أنّ العقل يدرك بأنّه ليس هو صانع نفسه فكيف يستطيع أن يرفض فكرة وجود مُوجد له صنعه ونفى عنه هذا العدم والدليل أنّه موجود والعدم منتفي فعلاً.

ثمّ إنّ الإنسان تبعاً لعقله يدرك أنّ له صانع أوجده ونفى عنه العدم وهنا تشترك بديهة العقل مع فطرة النفس للاعتراف بوجود الخالق، فيأتي الأنبياء والرسل عليهم السلام ليؤكدوا ذلك ويخبروا عن هذا الإله الخالق وعن صفاته فيخرج الفكر الإنساني من حيرته ويصل إليه النداء من هذا الخالق القدير الذي يقول بأنّي أنا خلقتك وخلقت الكون وأنا أهديك إلى سر وجودك، وإلى السبيل الذي يوصلك إلى السعادة والطمأنينة فآمن بي فأنّي الحقيقة التي تبحث عنها وأنا أجبرك عن سري وسر وجود الكون فأنا خالق الكون ومعلم العلماء فآمن بي وأطعني.

الأدلة الحسية على وجود الله

الدليل الخامس: «مبدأ العلة والمعلول»:

هو ما يسمّى أيضاً بمبدأ السبب والمسبَّب أو الأثر والمؤثِّر ويتعلق أيضاً تعلقاً كبيراً بالبديهيات التي يدركها العقل وهو مبدأ اتفق عليه الفلاسفة وعلماء الكلام وعلماء الطبيعة، والخلاصة بأنّ هناك علاقة وجود بين الأثر والمؤثِّر عليه وبين المعلول وعلته بمعنى أنّه إذا وجد الأثر فلا بدّ له من مؤثِّر وإنّ المعلول يأتي تبعاً لعلته أو كما يقول لسان العامة لكل مسبَّب سبب لأنّ ذلك بفطرة الإنسان أيضاً. فلنشرح ذلك بشكل مبسَّط.

إذا رأى الإنسان دخاناً فآته يدرك بالبديهة بأن سبب الدخان هو النار ولا بدّ من وجود نار لأنّه رأى الدخان، وإذا رأى ضوءاً في الظلام فإنه يدرك بالبديهة بوجود مصباح والذي هو سبب وجود الضوء وعلته، فالمصباح هو المؤثِّر والضوء هو الأثر وهناك علاقة وجود بين الضوء والمصباح فإذا وُجد الضوء فلا بدّ أن يكون هناك مصباح، وهكذا إذا رأينا أيضاً آله تلفت النظر بصنعتها الدقيقة ودقتها في العمل فبالبديهة يدرك العقل والإنسان بأنّ هناك صانع مُبدع لهذه الآلة فيسأل عن

صانعها ليتعرف عليه لإعجابه بهذه الآلة، فالآلة التي هي الأثر لا بدّ ولا شك بأنّ لها مؤثِّر وهو سببب وجودها فإذا بحثنا فإننا سنجد صانعها، وكم في حياتنا أمثلة من ذلك، فكذلك البيت الجميل الذي يتحف النظر بروعة هندسته وجماله فإنّك تدرك بالبديهة بأنَّ هناك مهندساً بارعاً قد بناه، وإنك ستبحث عنه ليبنى لكل بيتاً مثله، لأنّ تناسق البناء يدل على تناسق قدرة مهندسه المؤثر عليه والتي تجلَّت في البيت.

فإذا كان الضوء الساطع علته المصباح، والآلة الدقيقة هي أثر الصانع المبدع، والبيت الجميل هو من تجليات هذا المهندس الخلاق، وكل هذه الصناعات لا تنفك في وجودها عن صانعها، فنبحث عنه لإعجابنا بصنعته أفمن المعقول أيها الإنسان العاقل المفكِّر أنّ هذا الكون العظيم اللامتناهي أمام أعيننا، الدقيق الصنع وذو التنظيم العجيب الجميل الخلاب الذي يبهر الأبصار بجمال طبيعته والذي لا يتأخر فيه طلوع الشمس يوماً، ولا يختلف دوران الأرض في الزمن من سنة إلى سنة، ولا تفارق الأرض أبداً الفَلَك الذي وضعت فيه، أفمن الممكن أن نتجاهل علة وجوده وننكر أنّ هناك صانع له عالم قدير عارف بأسرار صناعته، أفمن الممكن أنّ هذا الكون ظهر فجأة من اللاشيء وبلا بسبب؟. أولم نقل بأن العلماء والحكماء والفلاسفة اتفقوا بأنّ لكل مسبَّب سبب ولكل أثر مؤثّر»، فإذا كان الأثر لا ينفك عن مؤثّره والمعلول لا ينفك في وجوده عن علته إذاً فلا بد لهذا الكون من علة لوجوده ومن مؤثِّر أثَّر عليه فظهر إلى الوجود، وإلا هل قرأت مرةً بأنّ المادة صنعت نفسها!. . أمّا العقل فسيجيب بنعم أنّه لا بدّ لكل

مخلوق من خالق. وقد عرفنا بأنَّ الكون حادث لم يكن ثمّ كان موجود من بعد عدم، إذن فهل المادة صنعت وكوّنت نفسها من العدم وإلا فلا بد لها من مؤثِّر عليها كوّنها، فظهرت إلى الوجود بقدرته.

فإذا كان هذا الكون عظيماً في صنعه فلا بد أنّ علة وجوده وتكوينه هو صانع عظيم خارق فعظمة الخالق للوجود تدل عليه روعة الخلق وعظمته سبحانه. وهكذا خاطب هذا الخالق العظيم عقل الإنسان عارفاً بما يجول فيه محتجاً عليه بمخلوقاته التي جعلها دالة على صنعته وعلى عظمته فقال سبحانه: «إنّ في خلق السماوات والأرض لآيةً لقوم يتفكرون صدق الله»[1] فيا أيها الإنسان المفكِّر هل ستكون منصفاً حين ترى آثار الخلق فتدلك على الخالق المؤثِّر أفليس العقل نفسه دليلاً على أنّ له صانع قدير وإلا هل سمعت يوماً فكراً يأتي من عدم فكذلك الكون. أو تحفةً تأتي من فراغ فكذلك الوجود.

دليل شبيه «كل دال يشير إلى مدلول»:

هذا الدليل يعتمد على ما يقوله علماء المنطق بخصوص الدلالة. وهي أنّ كل دال يدل على مدلوله. وهي بالنسبة لهم بحكم العقل والحس أيضاً ومضمونها أنّ هناك علاقة لا تنفك بين الدال والمدلول وسمّوها بالدلالة الالتزامية لأنّها لازمة بين هذين الطرفين.

تفسير ذلك هو أنّك إذا رأيت النور ساطعاً عندما نظرت فهذا دليل على أنّ الشمس قد أشرقت. فالضوء هو الدال والشمس هي المدلول عليه والضوء دلّ على وجود الشمس، وهناك علاقة لا تنفك بينهما فلمّا

(١) المصدر القرآن الكريم.

رأيت الضوء فمعناه أنّ الشمس موجودة. وهكذا بين التغريد والعصفور، فإذا سمعت تغريداً فإنّك تعلم بوجود عصفور مع أنّك لا تراه لأنه مختفي بين أغصان الشجرة أو لنفرض أنّ الذي يسمعه أعمى، فالتغريد هو الدال والعصفور هو المدلول عليه فإذا وجد التغريد فلا بدّ من وجود العصفور وهذه العلاقة يبنيها ذهن الإنسان من خلال الصور التي يحويها ويربطها بعضها ببعض وهكذا يبني الإنسان مرتكزاته عن الموجودات التي تحيط به ويتصرف على أساسها. فعلى هذا الأساس فما بالك بعلاقة شديدة الوضوح لكل ذهن نقي ولكل عقل سليم، وهي العلاقة بين هذه الموجودات المحيطة بنا المصنوعة والتي تدلّ على صانع لها كوّنها على أشكالها وروعة صنعها، أفتظنون أنّ العقل الذي اكتشف علاقات شديدة التعقيد بين الأشياء والعناصر وفي الطبيعة وفي الإنسان ووفِق قواعد وقوانين شديدة الدقة رياضية وفيزيائية وكيمائية وشبكها بعضها ببعض ويعطي نتائج لا تقبل الشك، أتظنون أنّ هذا العقل سيقبل أن ينفي علاقة بديهية وهي أنّ هذا الوجود يدلّ على صانع صنعه وعلى مبدع كوّنه وأنّ كل مخلوق يدلّ على خالقه فسيكون ذلك مكابرة وتجاهل ومعاندة، فيكون كما في مثال التغريد والعصفور كالذي سمع التغريد وهو مبصر يرى ويغطي عينه لكي لا يرى العصفور وهكذا أنت أيها الإنسان فإذا رأيت هذا الكون البديع وأغمضت عينيك عن الحقيقة لكي لا ترى الصانع والمكوِّن له فسيكون مكابرة منك ومعاندة.

«فانظر أيها الإنسان إلى نفسك ولاحظ كيف تتكلم بما تريد دون أن ترى الصوت مع أنك تسمعه وهذا العقل الذي يحلِّل هذه الأمور

المعقدة حوله مع أنّك لا تراه ولا ترى كيف يعمل وكيفية عمل بصرك الذي لا يخطىء أبداً مع أنّك لا تراه حين الإبصار وهو في عمله أفلا يدل ذلك على وجود مدبّر للكون يدبّره بعد أن صنعه مع أنك لا تراه».

فلا تكن معانداً أيها الإنسان فالحقيقة جلية وكل ما في هذا الكون يدلّ على وجود خالق صانع، حكيم، قدير دقيق الصنعة، لا يعرف الخطأ، فكما يعبّر أهل بيت نبي الإسلام على لسان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام موضّحين هذه الحقيقة في خطابهم للخالق بالقول[1]. «**بك عرفتك وأنت دللتني عليك ولولا أنت لم أدري من أنت**». فكذلك العقل وكل شيء في الوجود يخاطب الخالق بذلك وكلُ على طريقته صارخاً بأنّ هذا الكون العظيم يدلُ على خالقه وصانعه. فلا تكن أيها الإنسان من المعاندين للحقيقة فتخالف دليل العقل والفطرة.

الدليل السادس: «فطرة الإنسان تتّجِه إلى خالقها»:

نعلم بأنّ الإنسان يتكوّن من جسد وعقل ونفس وهي نفسها الروح بحسب الآراء. ونعلم بأنّ العقل يعطي تحليلاته واستنتاجاته اعتماداً على الدليل والتجربة والبرهان، وقد أوردنا فيما مرّ استنتاج العقل بوجود صانع وخالق لهذا الكون من خلال الأدلة والبراهين.

أمّا النفس فلها حكمها الخاص على الأشياء، وهو ما نسمّيه الشعور والإحساسات لدى الإنسان، فالإنسان إذا رأى شيئاً مخيفاً فإنّ هذه النفس تتفاعل مع هذا المشهد ويصبح لها شعور بالخوف حتى لو حكم

---

(١) المصدر: الصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

العقل بأنّ هذا المشهد غير مخيف، وإذا رأى الإنسان منظراً جميلاً فإنّ هذه النفس ستشعر بالفرح والسعادة سواء أنكر العقل ذلك أو وافق. فالنفس تتفاعل مع محيطها ونسمّي هذا التفاعل بالشعور وإذا لم تصِب هذه النفس الشوائب والأمراض النفسية وكانت ما تزال على نقاءها وصفاءها فنقول أنّ هذه النفس ما تزال على فطرتها أي كأنّها نقيّة كما يوم ولادتها، فتستطيع أن تتفاعل بشكل صحيح ومنطقي مع محيطها، ومع ما يعترضها من ظواهر حولها وما ترى وتلتقي به.

هكذا تصبح النفس مركزاً للأحكام للإنسان وحَكَماً بفطرتها توجِّه الإنسان وتجعله يحكم على الأشياء ليتعامل معها، فبفطرة هذه النفس لا يهتم صاحبها بكلام الكذاب لأن هذه النفس تحكم باشمئزازها من كلامه لأنّه سيقودها إلى الندم، وبفطرة هذه النفس تدرك بأنّ الإنسان العابس القادم إليك لا يحمل لك خبراً ساراً، وذلك دون تدخل العقل. إذن فالنفس هي عنصر متفاعل مع المحيط قادرة على إصدار الأحكام الصحيحة على الأشياء ما دامت على فطرتها السليمة. فبرأيك أيها الإنسان عندما ترى هذه النفس عبر الحواس هذا الكون العظيم الكبير بشمسه الساطعة، وقمره المضيء الجميل في الليل الأسود، ونجومه المضيئة البراقة التي هي أشبه بالزينة في لوحة خلابة، وعندما تدرك هذه النفس عبر حاسة الشم هذه الروائح العطرة من الأزهار والأشجار، وتدرك عبر حاسة اللمس دفء الأشياء الذي يبعث فيها الراحة، وعندما تصل إلى كيانها عبر حاسة السمع زقزقة العصافير فتبعث فيها السعادة فكيف سيكون حكمها؟.

طبعاً أول حكم لهذه النفس أنها ستُجذْب وتُعظِّم وتعجب بمصدر

هذه الأشياء الذي أثار فيها هذه الإنفعالات الجميلة وجعلها تشعر بالشعادة، وبالتالي ستبحث عن هذا المصدر الذي كوّن وصنع كل هذه الأشياء الجميلة المتنوعة الخلاّبة، منجذبةً إليه لإدراكها أنّ هذه الروعة في الصنعة لا بدّ أنّ لها صانع مُبدع هو أكثر عظمة من صنائعه ومن خلال هذا الإنجذاب تتعرّف هذه النفس على الصانع لما يحيط بها.

وكلما كان انجذاب هذه النفس قوياً يكون الشوق إلى معرفة هذا الصانع العظيم أقوى، ويكون التعلق بهذا المصدر أكبر كما يتعلق المشتاق بمن يشتاق إليه، وكلّما تعرّفت هذه النفس إلى خصال هذا الصانع ازداد هذا التعلق به، وهكذا تقود فطرة النفس هذه النفس إلى خالقها وتدرك أنّه مصدر كل ما أوصلها إلى سعادتها التي هي فيها وتدين له بالشكر والإمتنان.

فيا أيها الإنسان هلاّ نظرت في جلساتك الهادئة إلى هذا الوجود الخلاّب حولك وسألت نفسك التي في داخلك: ألا يستحق من أعطاكي كل هذه النعم وجعلك تشعرين بهذه السعادة أن تتعرفي عليه وتشكريه؟.

أليس شكر المنعم واجب على الإنسان، وهو من الفضائل. فإذا عرفت هذا الخالق العظيم وقوله وحِكمته لتعلقت به أكثر وهو القائل[1] بسم الله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فهل أنت من الشاكرين لمن أنعم عليك بالحياة؟.

(١) القرآن الكريم، سورة إبراهيم، الآية: ٧.

الدليل السابع: «الحكمة في الموجودات تدلّ على صانع حكيم»:

اعتمد الحكماء وأصحاب العلوم المختلفة منذ الزمن القديم طريقة التفكر والمراقبة لظواهر هذا الكون حتى يصلوا إلى حقائق الأشياء وأسرارها حتى تمكنوا من معرفة الكثير عنها، وأنت أيها الإنسان الباحث عن الحقيقة اسمع لتتعرف على أسرار هذا الكون علّك تدرك الحقيقة التي تختبىء وراءه.

اعلم بأنَّ الأبعاد بين الكواكب والنجوم والمسافات بينها وبُعد الأرض عن الشمس وبُعد القمر بالنسبة للأرض محسوب بكل دقة من صانعها، فيقول العلماء أنّه لو كان بُعد الأرض عن الشمس أبعد ممَّا عليه الآن لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس كلما زاد البعد بينهما ولكانت الكائنات الأرضية ومنها الإنسان قد تجمدت بسبب ذلك ولانعدمت الحياة على الأرض. ولو اقتربت الشمس من الأرض أكثر ممّا هي عليه الآن لارتفعت حرارة الأرض بسبب ازدياد حرارة الشمس الواصلة ولازدادت سرعة تبخّر المياه بشكل كبير بحيث أنّ البحار لا يعود لها وجود ولسخنت الأرض لعدم وجود ما يساعد على تبريدها ولما أمكن السكن عليها لأي كائن حي. ويقول العلماء أيضاً بأنّ الأرض محاطة بغلاف جوي سمكه ٨٠٠ كلم يحفظها ممّا يتوجّه نحوها من أحجار سماوية مشتعلة وهي النيازك التي تأتي من مجرتنا وهي في كل ثانية تأتي بأعداد كبيرة وبسرعة ٥٠ كلم في الثانية فلولا هذا الغلاف الجوي لما عاش على الأرض كائن ويعتبر لذلك بمثابة الدرع للأرض، كما أنّه هناك غلاف آخر حول الأرض يسمّى بالأوزون وعمله تنقية أشعة الشمس الآتية ويمنع مرور الإشعاعات المضرّة والتي

لو وصلت لما إستطاع الإنسان العيش عليها.

يتابع العلماء فيقولون بأنّه لو كان قطر الأرض أكبر ممّا هو عليه الآن لكان حجمها أكبر مما عليه الآن ولكانت قوة الجاذبية أكبر ممّا عليه الآن بحيث تمنع حركة الإنسان والكائنات عليها، ولنقص ارتفاع الجو المحمّل بالأوكسجين فوقنا، ولارتفع الضغط الجوي ومع كل ما ذكرنا تستحيل عندها الحياة على هذه الأرض. أمّا علماء الحياة والطبيعيات فيقولون أنَّ من العناصر المكوِّنة للحياة هناك الهيدروجين والنيتروجين مع الأوكسجين والكاربون، وهذه العناصر إذا اتحدت بعضها مع بعض حدثت أشياء مختلفة فاذا اتحد الأوكسجين بالهيدروجين تكوَّن الماء وإذا اتحد الأوكسجين بالنتروجين تكوَّن منها غازاً ساماً ومع ذلك نرى أن الإتحادات المضرة قليلة في حياة الإنسان والغالب هي الإتحادات المفيدة.

ويتابع علماء الطب مدلين بشهادتهم عن بدائع الخلق في وصف أصغر جهاز مركب في الإنسان وهو جهاز البصر فإنّه مع صغره مدهش للعقول محيِّر للإفكار في دقة صنعه وفي تركيبه الدقيق الذي لا يختلف من إنسان لآخر، فإن الشبكة التي تعكس عليها العدسة النور لا يزيد سمكها على ورقة رقيقة وهي منظّمة تنظيماً محكماً، وأنّ الأشعة الضوئية تنعكس عليها فتكوِّن الصور مرتسمة بشكل معكوس، أمّا البؤبؤ فهو دائري يتسع في الليل ليسمح بمرور كمية أكبر من الضوء ويضيق في النهار لكي تمرَّ كمية محسوبة من هذا الضوء كي لا تضرّ بالشبكة، وأنّ الصورة في النهاية تنتقل إلى الدماغ ليحللها وكأنّ هناك

مجموعة من العمّال والمهندسين المهرة يقومون بالحفاظ على انتظام هذه العملية الدقيقة من أولها حتى النتيجة النهائية دون أي خطأ فيها.

- أمّا الأذن فيقولون أنّها لا تقلّ اعجازاً عن جهاز البصر، فهي تتألف من الأذن الخارجية وهي قناة محميّة بشعيرات من الخارج تمنع دخول الأوساخ والغبار وتتلقى الأصوات، ثمّ الأذن الوسطى والتي تحتوي على سائل ينقل هذه الإرتجاجات لتتلقاها الأعصاب وتنقلها إلى الدماغ، وكل هذه العملية تجري في ثواني قليلة وكذلك الإبصار وذلك بعملية مدهشة سريعة متّقنة عجيبة في بعدها عن الخطأ وفي تصميمها.

إذن، وقبل أن نتابع عجائب أسرار الخلق نسأل أنفسنا أنّه إذا كان هذا التصميم المعقّد المحسوب بدقّة لامتناهية الذي لا يحتمل الخطأ، هذا التصميم لهذا الكون والذي كلّف عقل الإنسان جهداً خلال مئات السنين لا بل آلاف السنين وهو وقت نشأة العلوم ليتعرّف على أسراره وتركيبه وقوانينه، ويقف على اعجازاته أليس هو في الحقيقة يكتشف اعجاز المصمِّم له؟ أوليست الصنعة هي صورة وتجلّي لقدرة الصانع ودليل على قوة إبداعه، وأنّ تنوّع آثاره دليل على سعة فكره ومدى تفوّقه الذي لا يحيط به البشر ويعجز عنه النوابغ؟ أفمن اكتشف العقل فيه هذا التفوّق بآثاره، وهذه القدرة المبدعة التي تحيّر العقل واعجازه الذي لا يصل إليه أحد، أليس هو الإله الخالق؟».

نعم فأسرار الكون كلها تدلّ على هذا الإله المُبدع الخلاق.

- فانظر إلى القلب فإنّه قطعة لحم ولا يزيد قطره على ١٥ سم وهو

ينبض في الدقيقة ٧٠ مرّة فهو كالمضخّة التي تحتوي على بطارية صغيرة فيها شحنات كهربائية، فإذا انطلقت الشحنة ينبض القلب ليضخ ٤٤ غرام من الدم ثمّ شحنة أخرى فيعود إلى التقلّص. وهذا القلب له فتحات لا تسمح بمرور الدم إلا باتجاه واحد وكأنّ هناك مهندس اتصالات يعطي الأوامر ليمر الدم الفاسد المحمّل بالكربون والرئتين تتخلّص من هذا الكربون المضر إلى خارج الجسم، وهذه العملية تجري ما دمت حياً يقظاً أو نائماً. فهل هناك شك بأنّ هناك مهندس صانع حكيم لهذه المضخّة العجيبة التي يحيى بها الإنسان؟.

ثمّ تمعّن في الذرّة التي هي أصغر وجود في الكون، فترى أنّ توزع الالكترونات حول مركز الذرة بشكل هندسي منتظم ودورانها حول المركز بشكل منتظم متناسق يشبه إلى حد كبير حركة الأرض حول الشمس، ممّا يجعلك تجزم بأنّ هذه الهندسة العجيبة هي من مهندس واحد فائق البراعة لا يكاد يماثله شيء ممّا يعرفه العقل البشري، فيعترف هذا العقل مقراً ببراعة هذا الصانع وتناسق صنعته.

أمّا النبات فلاحظ كيف أنّه لا يستغني عن ضوء الشمس فهو لا يعيش بدونها كغيره من الكائنات، والصانع لها هو أعرف بها وبسرها فجعل لها سراجاً وهاجاً لا ينضب، فانظر كيف أنّ النبات يأخذ الكربون المضرّ بالإنسان وغيره من الجو ويعطي الأوكسجين ليجعله بكمية كافية لتنفس الإنسان الذي بدونه لا يستطيع الحياة ولاحظ أيضاً أنّ هذه العملية لا تتمّ إلا في النهار معتمدة على ضوء الشمس أمّا في الليل فهو العكس، وكأنّ هذا المهندس الصانع جعل مصنعاً لتزويد

الجو بالأكسجين وجعله موزعاً على كل سطح هذا الكوكب، أفليس إذاً هذا الدليل حين تنفسك وحين سماعك دقات قلبك دليل على وجود من أعطاك الحياة وأحْكَم صناعة هذا الجسد وما تحتاج إليه.

وإذا انتقلت إلى عالم الحيوان فراقب الخفاش فإنّه لا يمتلك عينين، ولكنه يملك جهاز رادار يصدر ذبذبات فإذا كان في طريقه جسم عادت إليه الذبذبات مرتدّة فيعلم أنّ في طريقه شيء فيستطيع تحديد خط سيره وفق ذلك، فبرأيك منْ الذي أخذ العينين ومنْ الذي أعطاه هذا الجهاز؟ أليس هو صانع يصنع ما يشاء وكيف يشاء أليس هو إلّه إذاً. راقب أيضاً الحية فإنها تستطيع سماع الأصوات الخفيفة جداً دون الإنسان، فتستطيع تمييز فريستها في الليل كما في النّهار «أفليس الذي ابتكر هذا الجهاز عند الخفاش هو الذي ابتكر ذلك عند الحية؟ أو لا يدلّ ذلك بأنّ هذا الصانع هو قاصد لذلك يخلق لكل مخلوق ما يناسب حاجته إذن فهو المدبِّر لكل المخلوقات وأعطاها ما تحتاج إليه وفق حاجتها، ودبّر الكون أيضاً بنفس الحكمة التي يتميّز بها». ثمّ راقب الصقر أيضاً فإنّه يطير إلى ارتفاعات شاهقة، فأعطاه هذا الصانع جهاز بصر يستطيع رؤية طريدته من على ارتفاع ٢٠ كيلومتر كما ترى أنت من مسافة عادية، فيا لهذا التناسب العجيب الذي يجعل العقل مقراً بوجود صانع له فائق القدرة، عظيم تدلّ عليه صنعته.

فإذا أردت أن تتأكد من وجود هذا الصانع القدير أيضاً فتعرّف إلى الجمل الذي يعيش في الصحراء التي تفتقد لوجود الماء فيها، فهو يستطيع البقاء فترة طويلة بلا شرب خلال سفره في الصحراء ولكنه حين

يشرب فهو يشرب أكثر من برميل من الماء، وبطنه تعطي الإنسان ما يحتاجه في سفره من لبن ولحم وجلده يُصنع لباساً يقي البرد ورمال الصحراء، فمنْ الذي رتّب سفر الإنسان في الصحراء؟ أليس هو نفسه الذي صنع هذا الجسد المعقّد التركيب؟. وهذه السمكة هي دليل أيضاً على هذا الصانع القدير فهي تستطيع أن تتنفس من الأوكسجين المتحلّل في الماء أمّا الذي هو في الهواء فلا تستطيع تنفسه، وما ذلك إلاّ لأنّ صانعها صمّمها لتعيش في الماء وتتنفس وفق ذلك. وكذلك الحيوانات التي تعيش في المناطق الباردة، فمنْ الذي زوّدها بفرو سميك ليقيها البرد بينما لا نجد هذا الفرو على الحيوانات التي تعيش في مناطق طقسها معتدل؟ إلا يدلّ ذلك على هذا الصانع الحكيم؟.

ثمّ حتى لا يبقى شكّ في نفسك فهذا دوّار الشمس يدور باتجاه الشمس دائماً وكأنّه يقول لك تعال وانظر هذا التصميم الجميل الذي جعلني عليه منْ صنعني لكي أكون دليلاً على حكمة صنعته.

وهذه النباتات الصحراوية تجدْ أنَّ جذورها تمتد بعيداً في الأرض لتبحث عن الماء وكأنّ صانعها زاد في تصميمها عن باقي النباتات لتستطيع الوصول إلى غذائها، وإلاّ فهل هي تدرك أو تفكّر لتتدبّر هذا الأمر بنفسها إذنْ فمنْ الذي أرشدها إلى ذلك إلاّ صانعها الحكيم. زدْ على ذلك بأنّ كل النباتات وتحت تأثير ضوء الشمس تقوم، بعملية تحويل ما تمتصه من مواد وأملاح من الأرض إلى غذاء من نوع النشويات وتوزعه بعدها إلى أجزاءها «فمنْ برأيك الذي صمّم هذا المعمل الصغير في مخلوقات لا تتعدى السنتمترات وأرشدها إلى ذلك

إلاّ صانع خلقها وضمن لها حاجاتها في هذه الحياة أليس هذا دليلاً على أنّ الذي خلق الخلق والكائنات هو العالِم بأسرارها ولولا أنّه لم يزودها بما تحتاج إليه لما استمرت حياتها إذن فهو الضامن لاستمرار حياة كل هذه الكائنات ومنها الإنسان فكما خلقها ضمن لها إستمرارها».

الإلهيون استدلّوا أيضاً بالحكمة في المخلوقات:

«الإلهيون أيضاً خاطبوا العقل البشري. وذلك لأنّ وجود الصانع الخانق هو حقيقة من حقائق هذا الوجود يدركها العقل من خلال ملاحظاته لهذا الوجود». فهذا الإمام الصادق. من أبناء بنت النبي محمد ﷺ نبي الإسلام يبيّن غاية ومنتهى الحكمة في الخلق، والتدبير الدقيق والحكيم للمخلوقات ليصل إلى حقيقة أنّ هنك مدبِّر للوجود في سؤال عن الدليل على الخالق فيقول عليه السلام [1]: «نبدأ بأنفسنا فهي أقربها إلينا، نبتدىء بخلق الإنسان فاعتبر به، فأوّل ما يدبّر به الجنين في الرحم وهو في ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحِم وظلمة المشيمة (فلاحظ أيها الإنسان الحكمة في هذا المستودع المصنوع من اللحم الذي يحفظ الجنين بدرجة حرارة مناسبة وبمعزل عن كل الظروف الخارجية التي ممكن أن تضرَّه) حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرّة، فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات (فالصانع الحكيم جعل

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد إبراهيم الموسوي الزنجاني (مرجع من مراجع الطائفة الإمامية).

لكل مخلوق ما يناسبه لنموه واستمرار حياته) حتى إذا استحكم بدنه وقوي أريجه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء (فلاحظ تدبير الصانع لأنّ الجنين في الرحم يكون تنفسه عبر الأوكسجين المتحلِّل في الدم إذا أنّ جهازه التنفسي يكون غير قادر على العمل لعدم اكتماله وبصره لا يتقبّل الضوء أيضاً لأنّه في مرحلة التكوين، فهل يستطيع ذلك إلاّ إله عظيم مدبّر حكيم) هاج حتى يولد. وإذا ولد صُرِف هذا الدم الذي كان يغذوه من دم أمِّه إلى ثدييها فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود (فيا للعجب لهذا المعمل المعقّد الذي يقوم بتحويل المواد كأحدث المصانع التي نعرفها بل لا يضاهيه شيء من هذه المصانع لصغر حجمه وفعّاليته الكبيرة).

فإذا وُلد حرَّك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثديي أمِّه كالاداوتين المعلقتين لحاجته إليه (فلاحظ حكمة هذا الصانع فإنّه يناسب كل الخلق على إختلافه بعضه مع بعض فمنْ يستطيع أن يحوي كل هذا الكون ويناسبه ببعضه إلاّ قدرة هائلة تسيطر على كل الكون) فلا يزال يتغذّى باللبن ما دام رطب البدن رقيق الإمعاء. حتى إذا احتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتدّ ويقوى بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس ليمضغ به الطعام (دقة الإتقان في مناسبة مراحل النمو مع حاجات الجسد من تطوّر تدلّ ليس فقط على وجود صانع بل على وجود قدرة تتابع تطوُّر الكائنات وهي ضرورية لاستمرارها) فيلين عليه ويسهل له إساغته فهل ترى يمكن أن يكون كل ذلك بالإهمال أو الصدفة بأن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد يجب أن يكون العمد والتقدير (أي التدبير) يأتيان بالخطأ (أي الصدفة) فهذا فظيع في

القول وجهل من قائله لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والقضاء لا يأتي بالنظام».

فالنتيجة أنّ الإمام عليه السلام بعد أن بيّن الحكمة في خلق الإنسان أوصل السائل إلى «أنّه لا يمكن لهذا التدبير والتقدير في الخلق أن يأتي عن طريق الخطأ أو الصدفة ولا يمكن للنظام والصواب أن يأتي من غير مدرك بل إنّ النظام والصواب والحكمة في الوجود لا بدّ أن تأتي من مدبِّر مدرك قاصد مفكِّر». فلا بد «أيها الإنسان بعد أن عرفت قليل من كثير من أسرار هذا الكون المبني على الدقة والنظام والحكمة البالغة، والتي تدعو إلى الدهشة والإنبهار فلا بدّ وبلا شك أن يكون هناك مبدع أراد أن يُظهر نفسه ويعبِّر عن وجوده عبر ما يُوجد»، فإذا كان هذا الكون عظيماً فلا بدّ أن يكون تجلياً للصانع وعظمته. فهذا الإله العظيم يخبر بحقيقته مخاطباً أحد أنبياءه عليهم السلام في حديث قدسي فيقول: «كنت جوهرة مخفية فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق»[1] فإذن لا بدّ لهذا النظام في الكون أن يكون له أساس وعماد مُنظّم له لأن النظام لا يأتي من فوضى بل من حكيم، فلا بدّ من وجوده.

---

(١) المصدر: كتاب كلمة الله هي العليا. (أحاديث قدسية).

الدليل الثامن: «اعداد هذا الكون لصالح الإنسان دليل على وجود منْ أعدّه له»:

الإلهيون اعتمدوا أيضاً على دليل العقل، لا بل اعتبروه حجة على الإنسان وشاهد على وجود الصانع الخالق لهذا الوجود، والخالق سبحانه يعلم السر الذي وضعه في هذا المخلوق وهو العقل ويعلم بأنّه وضع فيه القدرة على تمييز الصواب ليهتدي صاحبه إلى السبيل حين الشك، فلذلك توجه بالخطاب إليه ليذكره بخالقه عن طريق الحجج والبراهين.

فها هو أيضاً أحد أولياءه وحمَلة رسالته إلى البشر ابن بنت النبي محمد ﷺ الإمام الصادق عليه السلام وبعد دليله الأول يخاطب عقل الإنسان ليعطي الدليل على الخالق فيقول[1]: «أول العبر والأدلة على الباري جلَّ قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه فإنّك إذا تأمّلت العالم بفكرك وميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني الذيّ فيه جميع ما يحتاجه إليه عباده فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر (أي ما يدخره الكون من ثروات للإنسان) وكل شيء فيها لشأنه معدّ. والإنسان كالملك ذلك البيت والمحوّل إليه جميع ما فيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوانات معروفة في مصالحه ومنافعه، وفي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملائمة، وأنّ الخالق له واحد وهو الذي أوجده وألّفه ونظّمه».

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد إبراهيم الموسوي الزنجاني. (أحد مراجع الإمامية).

ففي هذا الحديث يوضح الإمام الصادق عليه السلام دليلاً مفاده بأنّ إعداد هذا الكون بشكل مقصود لمصلحة الإنسان وتوفير جميع ما يحتاجه هذا الإنسان لاستمراره وفق ما يتناسب مع خلقه يدلّ على أنّ هناك مدبِّر قصد ذلك، فإذا كان هناك هواء محمّل بالأوكسجين قد أُوجِد فما السر بأنّ الرئتين اللتين هما بعملهما أساس لاستمرار حياة الإنسان معدتان للعمل بواسطة هذا الأوكسجين دون غيره، سوى أنّ الذي أوجده أعده بقصد للإنسان لأنّه يعلم ما يلائمه وليس ذلك إلا لأنّه هو الذي صنعه. وإذا كان هناك نبات قد أُوجد فما السر في هذه المعدة التي هي أساس في توفير العناصر الغذائية للإنسان هي محتاجة لهذا النبات دون غيره وبدونه يتعطل عملها، وإذا كان النور قد أُوجد فما السر في أنّ عين الإنسان هي بحاجة ماسّة لنور الشمس لأنّها لا تستطيع الإبصار في الظلمة، وكذلك ما السر في إيجاد الظلمة التي بدونها لكان هناك نهار دائم ولما استطاع الإنسان النوم وبالتالي يفقد هذا الجسم فرص الراحة المنتظمة ويتلف بدونها.

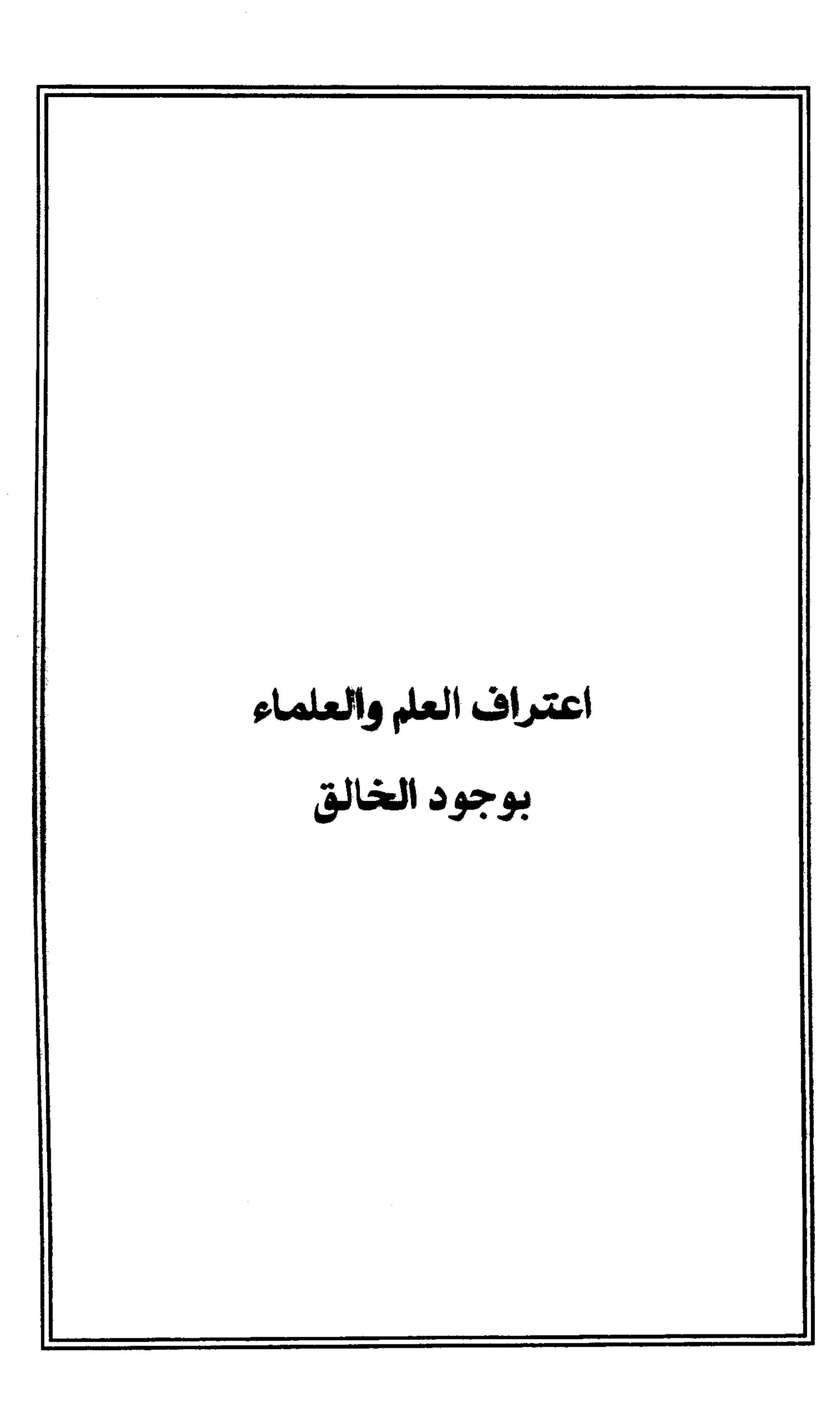
لاحظ أيضاً وأيضاً ما السر بايجاد المطر الذي بدونه لا تستقيم حياة الإنسان وكيف أنّ أعضاء الإنسان صُمِّمت لتعمل مستعينة بالماء بالذات لا بغيره، فبملاحظة كل ذلك يتضح لك بأنّ هناك صانع قد صنع كل ذلك وأوجده ليتناسب مع تلبية احتياجات الإنسان ولضمان استمرار حياته وفق خلقته وجعلها في خدمته وتحت سلطته وسهّل له الحصول عليها وأعانه بالعقل على تدبير سبل الوصول إليها. فإذا كان هذا مقصوداً مدبّراً من قدرة مفكّرة عاقلة تعلم ما معنى التناسب والملائمة والنظام في الأشياء وتربط وجود الأشياء ببعضها وفق قوانين

دقيقة فلا بدّ أن تكون هذه القدرة هي الصانع نفسه الذي يعلم أسرار الموجودات وحاجاتها وإذا لاحظنا ترابط الموجودات بعضها ببعض في هذا الكون ودقة انتظام هذا الترابط فلا بدّ لكل إنسان يملك عقلاً أن يحكم بأنّ هناك صانعاً واحداً لهذا الكون ربط هذه الموجودات بعضها ببعض، ولا بدّ لهذا الصانع أن يمتلك قدرات عظيمة وفكراً مدهشاً ولذلك حكم الفلاسفة والحكماء منذ القِدَم بوجود صانع إله لهذا الكون دون أن يعرفوه بذاته وصفاته، وقد أصابوا بحكمهم وأكدّ ذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام. فإذا كان هذا الصانع قد خلق النور المحتاج إليه لتبصر أيها الإنسان بعينيك دون أن تطلب ذلك فاعلم بأنّه حريص على أن تبصر حقيقة الوجود وعلى الوصول إلى الخالق الصانع ولذلك نبهّك إلى كل هذه النعم عليك وزوّدك بالعقل وسبل المعرفة، فهلاّ أبصرت هذه الحقيقة وهو الذي وجّه الخطاب إليك قائلاً[1]: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ صدق الله، أفليس في خلق الله دليل عليه.



(١) القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: ٧٨.





اعتراف العلم والعلماء
بوجود الخالق



اعتراف العلم والعلماء بوجود الخالق

العلم طريق الإيمان والمعرفة توصل إلى الخالق سبحانه:

اعلم بأنّ العلماء والفلاسفة قد أمضوا حياتهم في البحث عن خصائص الأشياء وأسرارها وعن القوانين التي تتحكَّم بالموجودات وأسباب هذه القوانين وقواعدها وكيفية عملها وتأثيراتها، وأبصروا هذا الكون ليدركوا حقيقته حتى يصلوا في النهاية إلى حقيقة وجود الإنسان لارتباطه بحقيقة الكون وبحقيقة الأشياء التي يتعامل معها، وبذلك وصلوا إلى نتائج بعد بحث طويل متواصل ووضعوا هذه النتائج بين يدي البشرية. فإذا اعتبرنا أنّ آراء الفلاسة والعلماء هي قمة وعصارة بحث العقل البشري عبر الأزمنة المختلفة التي لا ترابط بينها لاختلاف ظروف وبيئة ومجتمع كل زمان إلا كون نفس العقل البشري هو المراقب والباحث عن الحقيقة في كل زمان من الأزمنة، فنحن نستعرض آرائهم ونتيجة أبحاثهم لتكون حجة على الناس في وقت اعتبروا العلم بأنه الطريق إلى حقائق الأشياء والدليل على صحة المعتقدات أو خطأها وجعلوه الميزان للحكم على الأمور في مختلف المجالات التي يعيش فيها الإنسان، ولتكون هذه الآراء مساعداً

للوصول إلى حقيقة وجود الإنسان ولإنارة الطريق أمام كل إنسان باحث عن سر وجوده وحياته، لأنّ حياة الإنسان واستقرارها هي تابعة لاستقراره الفكري وصحة معتقداته التي على أساسها يبني نفسه وشخصيته وبالتالي مجتمعه المستقر السليم.

ديكارت يقول: «لو كنت مخلوقاً. من قبل نفسي لكنت خلقت ذاتي كاملًا»:

نبدأ بشهادة ديكارت الذي اجتمع عنده العقل الفلسفي والعقل الرياضي، وهو صاحب المعادلات الرياضية التي طالما قرأها الطلاب في المدارس والجامعات، فيقول: «أنا أفكر إذن أنا موجود: ثم قال إنّ لدي فكرة الكمال وأنا غير كامل فلو كنت مخلوقاً من قِبَل نفسي وذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملاً لأنني أمتلك فكرة الكمال، ولأنّ اعطائي لذاتي ضروب الكمال سيكون لا ريب أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم، وبما أنّني غير كامل فأنا إذن لم أخلق نفسي بنفسي»[1].

فهنا ديكارت يعترف بأنّه لا يمكن أن يكون قد خلق نفسه وذلك لأنّ لديه فكرة عن الكمال وهو ليس بكامل فلو كان قد خلق نفسه بنفسه لاختار الكمال لنفسه فلا بد إذن بالنسبة إليه أن خالق الكمال هو من يمتلك صفة الكمال وعنده فكرة عن الكمال ومنها أنّه قادر على أنْ يخلق الأشياء، «لأنّ الحكمة في الخلق والتناسب بين المخلوقات وحاجاتها ودقة انتظام الكون هي أعلى تجليات الكمال في الخلق فلا

(١) المصدر: من كتاب ديكارت للمؤلف أندريه كروسن.

بدّ من كمال مطلق ينتج عنه ذلك فهل ممكنْ لناقص أن ينتج عنه هذا الكمال؟ بالطبع لا». فالذي يمتلك صفة الكمال المطلق هذه ومنها القدرة على الخلق هو ما نسميه الإله لأنّه المعنى للعلو في الصفات والقدرات وبها يتميز عمّن سواه، فديكارت بهذا يعترف بوجود إله خالق يدرك الكمال لأنّه خالق الكمال ولأنّه الكمال المطلق في صفاته والكمال في الكون من تجلياته وهذا شيء طبيعي لأنّ الكمال لا ينتج إلا عن الكمال من إله يخلق الأشياء كيف يشاء على مَثَلِه من الصفات. فهلْ لكلمات ديكارت صدىً لدى الآذان التي احترمت كبار العلماء مثله والتي جعلت للعلم منزلةً عندها ونوراً تستضيء به في ظلمات الجهلْ والإنحراف والضبابية في الفكر؟. أنت أيها الإنسان هوالشاهد وأنت الحكم عندما ترى هذا الكمال في الخلق، فهل يأتي الكمال إلا من إله كامل.

برغسون يعترف «إنّ الله موجود في الذرّة»:

ثمّ هذا برغسون الفيلسوف الفرنسي الذي أتعب نفسه برهة كافية من الزمن في البحث في العلوم الرياضية فهو يرى في الذرة حركات في غاية الحكمة ويستنتج أنّه لا ربط لها بالصدفة فيقول: **«إنّ الله موجود في الذرة يبدعها أبداعاً وينظمها تنظيماً»**[1]. **فبرغسون يعترف بصراحة بأنّ هذا الترتيب الحكيم والتنظيم الدقيق هو عمل قدرة فوق قدرات أي مخلوق موجودة تدبِّر الذرة في حركتها والتي هي أصغر جزء من أجزاء** المادة.

---

(١) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للمجتهد السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

فتنظيم بهذه الدقة لموجودات غاية في الصغر لا بدّ أن تكون من قدرة مفكّرة عظيمة تدرك معنى النظام وتدرك أسرار حتى أصغر الأشياء في الكون كما تدركها في أعظم الأشياء فيه وتعمل على ترتيبها وتركيبها وتأليفها بعضها مع بعض وتسيِّر حركتها، رغم تنوّع خصائصها وتعقيد تركيبها وكثرتها، فهذه القدرة لا شك أنها عالمة بكل خصائص وقوانين المادة والذرة والكون فلا بدّ أن تكون هي الصانعة لهذه المادة فلا أجد أعلم بالشيء من صانعه ولا أحد أعلم بأسرار صنعته أكثر من صانعها. فبرغسون وصل إلى حقيقة هذه القدرة الصانعة فقال بكل وضوح بأنّ الله موجود في الذرة. كيف لا والله موجود مع كل شيء وفي كل مكان فهكذا يكون الإله إلهاً، صانع مدبِّر مهيمن بيده حركة كل شيء ينظِّم كل شيء ويحركه في نفس الوقت برغم كثرة الأشياء في الكون وتنوعها وتباعدها فيتضِّح أنّ هذا الإله هو المحرِّك للكون كما عبّر عنه برغسون إذ كما بيَّنا أنّه لا بد للكون من محرّك أساس لكل شيء، فكما يحرِّك هذا الإله الذرة فكذلك يحرك الكون.

العالِم الزنجاني: «كما الصاروخ لا بدّ للكون من مهندس»:

أمّا المفكر الإيراني عالم الدين المجتهد السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني الذي تتبع آراء الفلاسفة فيقول: «يتألف محرّك الصاروخ من ٣٠٠ ألف قطعة، فإذا كان صُنع إحدى هذه القطع خالف الهندسة التي يجب أن تصنع على أساسها، أو أنّه لم تُبذل الدقة المتناهية في إنتاج كل قطعة لأخفق الصاروخ عند إطلاقه وفشل. فكيف هذا العالم

المؤلف بما لا يتناهى من قطع من عالم الجماد والنبات والحيوان والكواكب، ثمّ ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عالم الأرواح والعقول: فإذا لم يكن هناك مهندس متصرف عليها فكيف انطلقت الحياة وما زالت في رحلة دائمة حتى هذه اللحظة» من الذي هندس وصنع هذه القطع؟ فكما أنّه هناك مهندس صانع لقطع الصاروخ فلا بدّ أن يكون هناك مهندس وصانع لقطع هذا الوجود»[١].

ويتابع السيد الزنجاني فيقول: **«أليست القوانين الرياضية نتيجة تدبّر وتفكّر وربط المعطيات بعضها ببعض وهناك من رتّبها ورَبَط معطياتها وهو الرياضي العالم فأخرجها إلى الوجود، فهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنّهار والأمطار والأنهار وأن ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مرتّب ومدبّر حكيم يرتّب قوانينها؟»**.

فمن كلام السيد الزنجاني نفهم بأننا إذا كنّا نحن البشر نبني حياتنا على قوانين رياضية وعلمية نسلِّم بأنّ الخروج عنها يؤدي إلى أخطاء وفي بعض الأحيان مدمّرة ومتفقون على أن هناك واضع معروف لها من البشر وضعها لتسير الأشياء ومعها الإنسان وفقها، فإذا كان أفراد يسيرون وفق قوانين لواضع مثلهم ويبنون حياتهم على أساسها فهل من الممكن أنّ هذا الكون بأجزاءه التي لا تعدُ ولا تحصى أن يسير وفق قوانين دقيقة بلا واضع لها ورياضي ألّفها مع بعضها، فهل من الممكن بعد أن تقدّم العقل الرياضي للإنسان إلى هذه الدرجة أن ينكر هذه

(١) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للمجتهد السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

البديهة وهو الذي يتغنّى بالعلوم والقوانين الرياضية ويتنافس في معرفة مصادرها ومن أين جاءت والطرق التي ألفتها ، أمعقول أن ينكر وجود الواضع لقوانين الكون والحياة أو نقول أنّه ليس هناك واضع لها، فعندها يكون ذلك خروج عن العقل الرياضي أو الفكر إلى هذه الدرجة التي ينكر معها هذه البديهة فهي خروج على أبسط القوانين التي نبني على أساسها حياتنا . فإذا كنا نسلِّم مشاريعنا إلى مهندس في كل مجال من مجال حياتنا ، أفلا نسلِّم بأنّ لهذا الكون مهندس يراقب ويسيِّر ويشرف على هذا الكون الذي ركّبه ورتّبه هو، وإذا كنا نعطي المهندسين البارعين درجات ماجستير ودكتوراه أفكثير على مهندس هذا الكون أن نسمِّيه إلهاً ونعطيه هذه الدرجة وهو الذي يستحقها .



شهادة العلماء
مقابل الماديين المنكرين حجة

نتابع شهادات العلماء مع علماء النفس الذين لاحظوا أنّ هذه النفس هي مصدر الخير ومصدر الشر وهي مصدر كل الأهواء المدمرة للإنسان كما أنها مصدر البناء والعواطف والرحمة ونحن نعرف أنّ كل مشاكل المجتمع الإنساني سببها الشر والأهواء الغرائزية وانعدام الرحمة عند الإنسان، وهم يعلمون بأنّ الإصلاح لا بدّ أن يكون ابتداءاً من هذه النفس.

«فقد أجمع علماء النفس بأنّ التديّن والاعتراف بوجود الصانع أمرٌ فطري عند البشر وأنّ المفاهيم البشرية كالمادية وغيرها نزعات قد تعيش برهة من الزمن نتيجة لطغيان هذه النفس الطائشة ولكن سرعان ما تموت وترجع الفطرة إلى فعاليتها الطبيعية وتدين النفس لخالق الكون بعد تكاملها وقطعها مراحل في عوالم تطهير النفس وتنقيتها من شوائبها وأوساخها»[1].

فعلماء النفس يؤكدون بأنّ الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في

---

(١) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للمجتهد السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

الإنسان، ولكن هذا الإنسان بارتكابه المفاسد وسعيه إلى الرذائل يحيد عن الفطرة وتعمى بصيرته فينكر خالقه ويتخذ ممّا صنع بيده عباده فيعبد الأوثان والحيوانات وممّا تسوِّل له نفسه التي فسدت من شتّى أنواع العبادات ويقوم بأعمال الشر لإنحراف هذه النفس عن قوانين الخير التي وضعها له الخالق. إذن فحسب علماء النفس كان التمسّك بالخالق هو ضمانة للفرد الإنساني وبالتالي المجتمع الإنساني تعصمه عن الشر والانحرافات وهذا كما سنرى فيما يأتي ما ركّز عليه الحكماء والفلاسفة بأنّ الخير لا يأتي إلاّ من مصدر الخير فاصلاح النفس يرتكز بشكل أساسي على التمسّك بالخالق واصلاح المجتمع والإنسان لا بدّ أن يرتكز على التمسّك بقوانين هذا الخالق لأنّها كما سنرى تدعو إلى الخير والصلاح. أفليس هذا ما تسعى إليه البشرية؟ وأليس سعي البشرية إلى مصدر الخير وما هو إلا الخالق الإله هو الحل لمشاكلها، فهذا ما أكّده علماء النفس. وما الأنبياء والرسل إلاّ علماء نفس على درجة عالية من العلم بهذه النفس الإنسانية.

<u>باستور عالم الطبيعيات يقول:</u> «كلما زاد علم الإنسان زاد إيمانه بالله»:

ثم أنّ دور العلم هو رفع هذه الجهالات التي تؤثر على هذه النفس، لأنّ العلم ليس له هدف إلاّ الوصول إلى حقائق الأشياء فيغلِّب الحقائق العقلية على انحرافات النفس ويعصمها من الخرافات والأوهام.

فاسمع باستور العالم الفرنسي المشهور العالم بالطبيعيات والأحياء وهو يؤكد هذا الدور للعالم والعلم في هداية النفس إلى حقيقة وجودها

فيقول: «لا تنافى بين العلم والإيمان بالله وكلما زاد علم الإنسان زاد إيمانه بالله»[١].

وهذا شيء طبيعي لأنّ الله سبحانه حقيقة موجودة فلا بدّ للباحث عن حقيقة الأشياء والوجود أن يصل إلى هذه الحقيقة التي يصادفها العلماء في كل مجالات بحثهم، وذلك لأنّك كلما بحثت في شيء في هذا الوجود ورأيت صفاته واكتشفت القوانين التي تتحكّم به فلا محالة أنّك ستتساءل عن صانعه وواضع هذه القوانين المدهشة وستصل بالفكر السليم إلى حقيقة وجود الصانع له، وعندها كلّما تقدّم الإنسان في بحثه عن الحقائق كلّما تجلت له حقيقة الصانع أكثر فأكثر لأنّ حقيقة هذا الصانع مرتبطة بحقيقة وجود كل شيء وليس إلاّ لأنّه الخالق لها وواضع قوانينها.

الدكتور وُتز الكيميائي يؤكد قول باستور:

يأتي الدكتور وُتز الكيمائي الشهير فيؤكد ذلك قائلاً: «إذا أحسستُ في حين من الأحيان أنَّ عقيدتي بالله تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها»[٢] أفليس في هذه الكلمات دليلاً على اعتراف العقل المفكّر السليم بأنَّ العلم هو طريق إلى الوصول إلى سر وجود هذا الكون والإعتراف به، فكلّما إزددت في إكتشاف أسرار الكون كلّما تثبَّتت حقيقة وجود صانع هذا الكون في عقلك وفي نفسك لكثرة الدلالات وتنوعها وإتحادها في الإخبار عن هذه الحقيقة، فلأنّ إحدى

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.
(٢) المصدر: عقائد الإمامية للسيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

الطرق لتثبيت أحكام العقل في النفوس هي اجتماع إخبارات كثيرة عن نفس الحقيقة واتحادها في الحديث عنها، فكيف إذا كان كل شيء في هذا الكون مرتبطاً بهذه الحقيقة ومخبراً عنها فلا يكون العلم إلاّ مرشداً دليلاً إليها وكاشفاً مخبراً ومؤكداً لها. فمنْ خَلق العقل لا بدّ أن يجعله دليلاً عليه ومشيراً إليه وهذا ما أراد الإله الصانع من خلقه وجعله حجة على الإنسان يحتجُ به عليه ويخاطُبه على لسان رُسُله ليدعوه إليه والإيمان به[1]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فهلْ نستمعْ إلى هذا النداء للوصول إلى سعادتنا المنشودة.

العقل والعلم يتحدث ويناقش ليفحم الماديين

بلسان جان جاك روسو

إذا كنّا بدأنا نفهم بأنّ العلم ليس إلا طريقاً للوصول إلى حقيقة وجود الخالق والعقل ليس إلا هذا الباحث عن الحقائق فلنستمع إلى شخص من أشهر الشخصيات. وكيف أنّه اعتمد البحث العقلي ليصل إلى حقيقة وجوده وحقيقة هذه الحياة وكيف أن هنالك صانعٌ لها، **فاستمع إلى المفكّر والفيلسوف الأديب جان جاك روسو وهو يقول: «أن تعتقد أنّ مادة ميتة تقوى على إيجاد هذه الكائنات الحيّة الكثيرة، وأنّ الضرورة العمياء تتمكّن من خلق الموجودات العاقلة، وأن شيئاً عديم**

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة عقلاً، ومن البديهي أنّ الحركة ليست بأمر ذاتي من الجسم فلا بدّ من محرّك ومتصرف وأنّ سلسلة من الحركات الكونية كلها تنتهي إلى المحرّك الأول وهو الله تعالى»[١].

فهنا روسو يصرِّح بشكل واضح بالحقيقة القائلة بأنّه لا بدّ من وجود محرِّك أول لحركة الكون ويؤكِّد ما تحدثنا عنه بأنّه لا بدَّ أن يكون هناك محرِّك منظم لهذا الوجود ينسِّق حركة الأشياء بعضها مع بعض ليمنع الفوضى وتصادم الأشياء المتحركة مع بعضها فلولا وجود هذا المحرِّك وقدرته على القيام بذلك لما تحقّق هذا النظام الدقيق في الكون لحصلت الفوضى في حركة الوجود.

ثم يشير روسو إلى بديهة عقلية وهي أنَّ هذه الموجودات العاقلة التي هي الإنسان بأفراده الكثيرة لا بدّ أنّ محركها قاصد لخلقها قادر متمكِّن متصرِّف بترتيب الأشياء كيف يشاء فهو مدرك فاعل قادر فهو نقيض الضرورة العمياء التي يقول بها الماديون. فروسو يعلن عن احتجاجه مقابل الماديين وأنّه من غير الممكن أنّ المادة العمياء التي لا تعقل وليس لها فكر والتي لا تملك الحركة إلاّ إذا حرّكها أحد، وإذا كانت تتحرّك ذاتياً فوفق قوانين ليست هي التي وضعتها بل هناك من وضعها لها، فمن غير الممكن أن تخلق هذه الماديات الخالية من الشعور ومن التفكير كل هذه الكائنات الحية الكثيرة المليئة بالأسرار والمعقدة التركيب فخالق الحياة لا شك أنّه ليس بمادة وكل شيء ماديٌ أمامنا ليس إلا مخلوق لا يملك إيجاد نفسه ولا غيره، أمّا الخالق فهو ذو

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

قدرة مفكِّرة عاقلة مدركة شديدة الذكاء. فعبر التفكير المنطقي وصل روسّو إلى حقيقة الإله الخالق ورفض نظرية المادّة والماديين وقال بصراحة إنّ كل سلسلة الحركات الكونية تعود إلى المحرك الأول وهو الله.

لافوازييه الفيزيائي: «المادة لا تخلق شيئاً من تلقاء نفسها»:

ليس روسُو وحده الذي إتّبع هذا الطريق المنطقي عبر التفكير السليم للوصول إلى حقيقة أصل الإنسان والوجود فهناك شخصية أخرى وفي مجال آخر وهو مجال الفيزياء فقد **اتّبع العالم لافوازييه صاحب القانون الفيزيائي المعروف طريق القواعد الفيزيائية للوصول إلى نفس النتيجة فيقول: «إنّ المادة لا تُخلَق من تلقاء نفسها لأنه لا بد من وجود خالق أزلي حكيم هو خالق الأشياء كافة، أودع فيها نظماً ودساتير عميقة وإنّ المخلوقات تتأثر بعوامل شتّى وليس الله يتأثر بشيء وهو المؤثر وحده وهو خالق الزمان والمكان ولا يمكن أن يُتصوّر وقت لم يكن الله فيه موجوداً فهو أزلي أبدي سرمدي»**(١).

فلافوازييه يؤكِّد مبدأاً يحتّمه الفكر السليم بأنّه لا بدّ لكل مصنوع من صانع، وذلك من خلال بحثه في قواعد الفيزياء، فالمادة لا يمكن أن تُخلق لوحدها أو أن تخلق نفسها بحسب ما خبر في بحوثه ثمّ يؤكِّد أيضاً بأنّ الذي نظّم هذا الكون بدقة متناهية وعلى أساس الحكمة البالغة لا بدّ أن يتّصف بصفة الكمال والتي منها الفاعلية، وهي أنّه

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية للمجتهد السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

مؤثّر في المادة التي هي أصل الأشياء وجاعلها على الأشكال التي يريدها، ومن هنا يأتي تنوّع الموجودات مِنْ قوة تأثير الصانع وقدرته على التحكم بالمادة يصنعها كيفما شاء ووفق القوانين التي يريد، فهو قادر على التحكّم بصنعها كما أنّه قادر على التحكّم بسيرها، فهذا هو الإله الذي يتصف بالقدرة والكمال يُؤثر في كل شيء ويتحكّم به ولا يتأثّر بشيء وهو المؤثّر وحده في الأشياء. فلو أنّه يتأثّر بالأشياء أو أنّه هناك مؤثر غيره فمن أين تأتي هذه الدقّة في النظام الكوني وكيف أنّ هذا النظام مستمر بلا اختلال فالليل والنهار والفصول والأمطار وحركة الكواكب نجدها تسير بتأثير قوة واحدة لا تتبدّل ولا تتغيّر ولمْ نجد قوة أو نسمع عن قوة أخرى عبر التاريخ جاءت لتنافس القوة التي تنظم عالمنا أو تحاول التأثير معها أو تسبِّب لها اختلالاً وهذا دليل وحدة الصانع والمدبِّر.

يضيف لافوازييه على استنتاجاته بأنّ هذه القوة المنظِّمة لا بدّ أن تكون دائمة الوجود للحفاظ على استمرار النظام الكوني لأنّ المادة تتعرّض للتغيّر والتبدّل من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع وهي قابلة للفناء، فكأنّ العلم يؤكِّد مبدأ علمي وهو أنّه لإستمرار الوجود يجب استمرار علة هذا الوجود وهو الصانع المؤثّر فيه، فالمادة خلال تغيرها وتبدلها ممكن أن تسبِّب اختلالاً في نظام الكون إذن فلا بدّ من قوّة تسيطر على هذه الظاهرة وتسيطر على المادة. وليست هذه القوة إلاّ القدرة الصانعة للمادة والواضعة لها قوانينها والعارفة بأسرارها وتغيراتها فمن الطبيعي أن يكون ذلك فهلْ رأيت مرةً مهندساً زراعياً يعمل على صيانة آلة ميكانيكة معقّدة، فكيف إذن باحد لا يعلم شيئاً في

سر صناعة هذا الكون فسيصل بهذا الكون إلى الخراب ونحن لا نرى ذلك.

فالقول بأنّ المنظِّم لهذا الكون يجب أن يتّصف بالقدرة العاقلة المدركة والقول بأنّ المادة العمياء لا تخلق شيئاً عاقلاً مفكراً تُبطل نظريات الماديين في أصل الخلق وتوصل إلى نتيجة أنّه لا بدَّ أن يكون هناك صانع عاقل مدرك قاصد حكيم، ويزيد لافوازييه بأنّه لا بد من دوام هذه القدرة لتتحكّم بالمادة المتغيرة ولا بدّ أن تكون أزلية قبل وجود المادة لأنّها هي أصل كل وجود مادي، إذ أنّ المادة لا تأتي من نفسها ولا بدّ لهذه القدرة أن تكون أبدية لأنّه لا بدّ من استمرار علة الوجود وعلّة الأشياء لأنها المتحكِّمة بها فهي ضمان الاستمرار فلذلك قال لافوازييه بأنّ هذا الخالق هو الخالق للزمان والمكان وليس للمكان فقط وأنّه لا يتصوّر بأنّ الله الخالق لم يكن موجوداً في وقت من الأوقات لضرورة وجود علة الوجود والأشياء وعدم انقطاعها عن التأثير على هذا الوجود ولو للحظة واحدة. وهكذا تتضّح فكرة الإله الخالق المدبِّر المؤثِّر فهو أصل الوجود وسبب استمراره وبقاءه ولا قيمة لاستمرار الإنسان إلا بمعرفته وطاعته.

أشهر مخترعي الشرق «النواميس التي يتمثّل عليها الكون ليست إلّا كلمات الله وإرادته»:

أمّا المخترع الشهير حسن كامل الصبّاح وهو من أشهر مخترعي الشرق والذي بلغت اختراعاته في الالكترونيات والكهرباء المئات فيقول بعد تجارب وبحوث طويلة في إحدى رسائله «إنّ الاعتقادات الدينية وعلى الأخص فيما يتعلّق بالقدرة الإلهية منطبقة تمام الإنطباق على الطبيعي الصحيح (أي الواقع الحقيقي) لأنّ القرآن يحتوي على نصوص كثيرة تحث على التفكّر في خلق السموات والأرض، وما النواميس (أي القوانين) التي يتمثل عليها الكون إلاّ كلمات الله وإرادته، وإنّي لأعرف من تجاربي إنّي كلما فهمت ناموساً طبيعياً من النواميس التي تتمشى عليها الكهارب والالكترونات والنور أعظمت حكمة الخالق وزاد إيماني، بل كلّما فكّرت عندما كنت نطفة لا أملك ولا يملك لي أبواي ضراً ولا نفعاً كانت النواميس التي تمثّل مشيئة الباري هي وحدها التي تكفلني وتجعلني أنمو مادة وعقلاً»[١]. فهنا حسن كامل الصبّاح الذي ولد مسلماً وتعرّف على القرآن وهو كتاب الله الخالق، يُقرّ بأنّ ما وجده خلال أبحاثه وتجاربه يطابق ما أخبر عنه هذا الخالق العظيم في كتابه ويعترف بأنّ الخالق سبحانه قد دعا الإنسان إلى النظر في أحوال الكون لأنّه يعلم بأنّ عظمة الخلق وأسراره العجيبة لا بدّ أن توصل كلّ مفكرٌ إلى حقيقة الوجود وإلى حقيقة الصانع الخالق، وهذا ما وجده فعلاً حسن كامل الصباح خلال أبحاثه حيث

---

(١) المصدر: كتاب دراسات مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور علي سليم بدر الدين.

يضيف بأنّه كلما تعمّق في أبحاثه زاد إعجابه بحكمة هذا الصانع القدير وزاد إيمانه بهذا الإله الخالق عندما كان يرى هذه النظم الدقيقة التي تتمشى عليها الكهارب والالكترونات، وتوصّل إلى أنّ هذه النظم الدقيقة ليست إلا إرادة صانعها وواضعها يحرِّكها وفق ما صنعها ويتحكَّم بسرها ويعمل على بقاءها واستمرارها.

أخيراً وصل حسن كامل الصبّاح إلى سر وجود الإنسان وبأنّه لولا هذا النظام الذي يمثِّل إرادة الخالق ومشيئته في الأشياء فمن الذي يرافق مراحل نمو النطفة ومن الذي يتكفّل بنموالإنسان حين لا يستطيع أحد الوصول إليه وهو في بطن أمه لولا أنّ هناك صانع واضع لقوانين النمو وواضع لقوانين كل شيء يسيِّر هذا الوجود وفق ما وضع له من قانون وهو يشرف عليه، فكل شيء تحت سلطته ويخضع لقدرته ويضمن استمراره تحت اشرافه فيمثِّل إرادته في الوجود، فيكون حسن كامل الصباح من خلال اكتشاف قوانين ونواميس الكهارب والالكترونات قد توصل ليس فقط إلى حقيقة الخلق بل إلى حقيقة الخالق فوافق قول برغسون الفيلسوف الفرنسي حينما قال «إنّ الله موجود في الذرة ينظمها تنظيماً» بل إنّ الخالق سبحانه موجود مع كل شيء وهكذا تطابقت آراء كبار العلماء مع كلام الرسل والأنبياء أفليس في ذلك دليل على الحقيقة.

رئيس المجمع العلمي في نيويورك «العالِم في كل مرحلة يقترب من الله»:

هذه الحقيقة نجدها أكثر وضوحاً عند الأشخاص خاصة منهم من تعمّق في معرفة أسرار الكون وخاض في التجارب والأبحاث حتى التصقت شخصيته بتجاربه وأبحاثه وتأثّرت بنتائجها، **فمن هؤلاء الأشخاص كِرسي مورسن رئيس المجمع العلمي في نيويورك سابقاً فيؤكد هذه الحقيقة فيقول: «لسنا إلاّ في فجر العلوم، ولكن كل إلمامة جديدة وكل تزايد لنور المعرفة تأتينا ببرهان جديد على أنّ كوكبنا هو حقاً صنيعة عمل خلاّق فعّال كذا يعتمد الإيمان على المعرفة ويشعر العالِم في كل مرحلة جديدة يقطعها أنّه يقترب من الله»**[1].

فمورسن يؤكد بقوله هذا كما أكّد الصبّاح ولافوازييه بأنّ معرفة القوانين التي يسير عليها الكون وكشف خصائص الأشياء التي تعطي هذه الموجودات تنوّعها واختلافها عن بعضها مع عدم تناقضها وتصادمها بل على العكس فهي مكمِّلة لبعضها، ولا يمكن لهذا الوجود أن يستمر إلا بتعاونها وإئتلافها بطريقة تدعو المراقب لها والباحث عنها للتساؤل عن سر هذا الاتفاق العجيب بينها دون أن يكون لها إدراك أو شعور يدفعها إلى ذلك. فكلّما حاول الباحث استنطاق هذه الحقائق والوصول إلى سرّها وكلّما سعى بالإزدياد في المعرفة للوصول إلى ذلك كلّما تكشفّت لهذا الباحث حقيقة الوجود وإتّضاح أنّ هناك قدرة ركّبت هذه الخصائص عن إدراك وأرشدتها للاتصال ببعضها عن إتفاق لا عن اختلاف وإلا كيف يمكن لهذه الخصائص

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية لإبراهيم الموسوي الزنجاني السيد المجتهد.

والقوانين المعقدة الكثيرة والمتنوعة أن تتناسب بهذه الطريقة على امتداد لا متناهي في الزمان والمكان. فهكذا كان العلماء والباحثون هم أكثر الناس إدراكاً بأنّ المعرفة هي طريق إلى الخالق الصانع وإلى معرفته وهذا ما قاله كِرسي مورسن، فإذا كانت المعرفة هي طريق لبناء الإنسان والمجتمع فمعرفة الخالق التي هي أساس حقيقة الكون والوجود لا بدّ أن تكون هي الأساس في بناء الإنسان والمجتمع. وكلام الصبّاح ولافوازييه ومورسن يؤكد ذلك.

أصل الحياة دليل على وجود الخالق

بلسان العلم والماديون ضلوا الطريق

أغلى ما عند الإنسان هي الحياة فهي تجلّي وجود الإنسان نفسه وهي أكثر شيء يتثمّن به هذا الإنسان ويهتم به، وهي عبارة عن حركة الجسد فهي إذن جزء من حركة هذا الكون الكبير ومن حركة الموجودات بشكل عام فهي ككل ما يتحرك في هذا الكون تسأل عن مصدر حركتها والمحرّك لها، لأنّه بدون هذه الحركة التي تعطي معنى للوجود يصبح الإنسان كغيره جماداً لا قيمة له وقد جهد الإنسان لمعرفة الجواب. ولعبت العلماء والفلاسفة دوراً كبيراً في هذه المعرفة وردّوا حجج الذين سلكوا الطريق الخاطىء وصوّبوا أخطاء الأدلة. **وهذا كولان العالم الفرنسي في الطبيعيات أحد الذين ساهموا في اعطاء جواب عن أصل الحياة وأصل وجود الإنسان فقال: «إنّ تطورات المادة وعوامل الطبيعة فيها لا يمكن أن توصلنا إلى تعليل وجود الحياة في الأحياء ولا بدّ من وجود خالق بعث الحياة في النبات والحيوان في أول سُلّم نشوئهما وأنّ كل من يقول بغير ذلك ضعيف**

العقل أو دجّال يتكلّم باسم العلم بغير علم»[1]. فبعد مراقبة كولان لأحوال المادة وتركيبها وخصائصها والأحوال الطبيعية وتطور الحياة فيها لم يستطع أن يجد في هذه المادة الجامدة ولا في عناصرها الخاضعة بنفسها إلى قوانين موضوعة لها تسير عليها والقاصرة عن خلق وإيجاد شيء فهي جزء من الأشياء موجودة مع هذه الأشياء والجزء كالكل لا بدّ أن يكون هناك من أوجده وإلا كيف يخلق الجزء الكل الذي هو فيه، والطبيعة في أحوالها هي خاضعة لعوامل أيضاً هناك من يوجدها ليعمل على تطورها وتغيير أحوالها فلا بدّ من وجوده.

ففي نهاية المراقبة والتدقيق في المادة والطبيعة رمعرفة أصل نشؤها توصّل كولان بالتفكير المنطقي بأنّه لا بدّ أن يكون هناك خالق بعث الحياة والحركة في النبات والوجود والإنسان وهو أصل الحياة والوجود فأن تجعل مادة جامدة غير مدركة تتحوّل من الجماد إلى الحياة فلا بدّ من باعث لذلك ويلتقي كولان أيضاً مع روسُو الذي قال: «إنّ سلسلة الحركات الكونية لا بدّ أن تنتهي إلى المحرّك الأول وهو الله» وهكذا أصل الحياة ينتهي إلى باعثها في الموجودات وإلى المحرّك لأول حركة فيها فأصبحت حيّة ذات شعور وإحساس، فهل يدفعنا ذلك إلى الإيمان به وطاعته.

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

سؤال إلى الماديين:

فلننظر بأكثر دقة إلى مسألة حياة الكائنات ومنها الإنسان وبتمعّن أكبر. فيقول الباحثون في علم الحياة بأنّ الكائنات الحيّة متكوِّنة علمياً من العناصر الأربعة «الهيدروجين - النتروجين - الأوكسجين - الكاربون وهذه العناصر إذا اتحدت بعضها مع بعض أوجدت أشياء تختلف بعضها عن بعض فإذا اتحد الأوكسجين بالهيدروجين تكوّن منهما الماء وإذا اتحد بالنتروجين تكوّن منهما غاز سام، وهذه العناصر الكثير منها مضر بالحياة. «فلَنا أن نسأل علماء المادة والمتخصصين بعلم الحياة والقائلين بالصدفة والباحثين عن أصل الحياة بأنّه إذا كانت المادة لا تدرك ولا تشعر فمن الذي جمع بين هذه العناصر وكوّن منها جرثومة الحياة وجعلها تارة على شكل حيوان وتارة على شكل إنسان ومنْ الذي جعلها لا تغلط في سيرها ولا تخالف المجال الذي وُضعت فيه ولا تخطىء في تراكيبها. أهي الصدفة العمياء والإتفاق غير المقصود؟». ثمّ إذا نظرنا في جسم الإنسان وما اشتمل عليه من الأجهزة المحيِّرة للعقول والمعامل التحليلية في الجسم التي دُهش العلماء لدقّة عملها رغم تعقيد العمليات التي تجري فيها والتي لم يكتشف الاختصاصيون المهرة إلاّ جزءاً من أسرارها أيعقل أن تكون عن طريق الصدفة والإتفاق. أمّا البروتين فهو جزء هام من مادة البروتوبلازم التي هي المادة التي تتكوّن منها الخلية في النبات والإنسان والحيوان والخلية هي أساس الجسم، فيعتبر البروتين مصدر كل حياة وبنفس الوقت فهو مادة لا شعور لها ولا إدراك فهل يمكن لمادة لا شعور لها ولا إدراك أن تكون هي مصدر الحياة إذا لم تكن

هناك قدرة وراءها تنفخ الحياة فيها وتحدِّد لها دورها هذا.

إذن فلا بدّ من باعث لأول حركة في هذه الحياة وأصل لها، مدبِّر منظِّم حكيم قاصد مدرك شديد الإتقان في صنعه يعرف بقوانين المكيانيك وخبير بالتفاعلات الكيميائية ويعلم بكل قوانين الرياضيات العالية والطبيعيات، وبرأيك ما هي هذه القدرة التي تملك كل تلك الصفات غير أن تكون قدرة فوق تصوّر وإدراك البشر وما هي إلا خالق الموجودات وصانعها والخبير بتركيب كل جزء منها في هذا التركيب الكوني المعقّد الدقيق الصناعة، وخالق العلوم نفسها وخالق العقل الذي توصَّل إليها. ولأجل هذه الصفات التي تجعل هذه القدرة هي عنوان الكمال والقدرة المُطلقة سمِّي الصانع لهذا الكون إلهاً لأنَّه حقيقة الكمال ومنه تصدر الصفات في المخلوقات ومنها صفة المفكِّر في الإنسان، لأنّه سبحانه خلق العقل والذي هو نفحة من وجوده أنعم عليه به ليميزه عن باقي المخلوقات ويجعله قادراً على إدراك سر وجوده.

أمّا إذا افترضنا أنَّ المادة التي هي الأساس في تركيب هذا الوجود هي الأصل في الحياة وهي المعطية لها فيقول العلماء أنفسهم «**أنَّه من لوازم كيان المادة الحركة والتغيُر والزمان والتركيب**» والحركة كما بيّنا هي الإنتقال من السكون فلا بدّ لها من محرِّك فهي كما يقول العلماء لا تتحرك ذاتياً فهي محتاجة لغيرها والتغيّر دليل على التبدُل من حال إلى حال ودليل أنها ممكن أن تصل في حال تبدّلها إلى حالة الانعدام والفناء، «**والذي هو أصل الحياة يجب أن يكون غير محتاج لغيره، لأنّه الأصل ولا يصيبه التغيّر والتبدل والفناء فهو باقي أبدي إذن فهو**

غير المادة وليس بمادي». ثمّ إنّ إتصاف المادة بالزمان لأنها دائماً في ظرف زماني ولها بداية ونهاية وهذا دليل على أنها لا أزلية ولا أبدية فإنّ الأزلي الأبدي ليس للزمن معنى بالنسبة إليه وبما أنّها لا أزلية فمعناها أنها حدثت فهي مصنوعة وبحاجة لصانع لها، وكونها تتّصف بالتركيب فإنّ كل مركّب بحاجة إلى بقية إجزاءه ويصيبه النقص بفقدها، فلأجل كل ما ذكرنا ممّا يصيب المادة فهي محتاجة ناقصة يصيبها العدم والفناء وهي مصنوعة فهي أبعد ما يكون عن أن تكون هي المعطية للحياة والحافظة لها وسبب استمرارها ولأنّها تتأثّر بغيرها لما ذكرنا فإذا كانت هي أصل الوجود فكيف يتأثر الصانع بما يصنع وكيف هو محتاج إلى ما يصنع لوجوده واستمراره؟.

فكل ذلك يوصل إلى ضرورة أنّه لا بد أن يكون هناك خالق صانع متّصف بصفات الكمال أي أنّه أزلي فهو أصل كل شيء وكان قبل كل شيء، أبدي يضمن للوجود استمراره وبقاءه، لا يصيبه التبدُل والتغيّر والفنّاء فهو ليس بمادي وهو غير ما يتصوّره البشر في تعاطيهم مع محيطهم إذن فهو منْ نسميه الإله وهو منْ أخبر عنه الأنبياء والرسل وأخبروا عن هذه الصفات فيه فتطابقت أقوالهم مع ما توصلت إليه آراء أصحاب الفكر من العلماء والفلاسفة والباحثين في علوم المادة الذين توصلوا إلى حقيقة وجود الله عن طريق النظر والبحث في أحوال الكون وهو ما دلّت عليه كلمات روسو ولا فوازييه وكولان وباستور وديكارت وحسن كامل الصبّاح وغيرهم من العلماء فالعلم هو حقاً طريق للإيمان بالله لكل صاحب فكر سليم ولكل باحث عن الحقيقة.

إذا أنكرنا المبدىء لهذه الأرض فأين المصير عند نهايتها:

تقضي الحكمة في الإنسان إذا أراد أن يحكم على الأشياء أن لا ينظر إليها بشكل سطحي بل أن ينظر إليها من كل جوانبها وببصيرة وبنظر بعيد يمكّنه من الوصول إلى حقائق الأمور. **فها هو علم الفلك ينظر إلى العمق ليشير إلى مسألة بدء الخلق ويؤكدها وبأنّ الكون مصنوع وذلك على لسان دونالد روبرت كار فيقول: «يُستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوتة من الدقة، ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حد كبير وهي تشير إلى أنّ الكون قد نشأ منذ نحو خمسة بلايين سنة وعلى ذلك فإنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ولو كان كذلك لما بقيت فيه عناصر شعاعية وذلك لأنّها تنضّب مع مرور الزمن»**[١].

وهذا الكلام صحيح تماماً لأنّ العناصر المشعّة لها عمر معيّن **محسوب بالزمن الدقيق، فهي تخبو مع مرور الزمن فلو كانت الأرض قديمة أزلية لكانت أكثر العناصر إشعاعاً قد خبت وانطفأت، إذن فالكون له بداية والعلم يشهد بذلك ويؤكده وإذا كان كذلك فقبله هل كان العدم هو السائد. وإذا كان ذلك فعلاً فمن أين جاء هذا الكون المعقّد الصنع فالعدم لا يخلق شيئاً فدونالد كار يؤكد بكلماته أنّه من المفروض أن تكون هناك قدرة خالقة لإيجاد هذا الكون وإلا لاستمر هذا العدم، ولا بدّ من وجود هذه القدرة لتلغي فكرة العدم لما قلنا لأنّ العدم هو أننا غير موجودون ووجودنا يكذب ذلك. ويضيف العلم على**

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

لسان الفيزيائي إدوار لوثر كسيل فيقول[١]: «هناك انتقال حراري مستمر في الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة (قانون الترموديناميكا) ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث أنه ستبرد الحرارة فترتد الأجسام إلى البرودة ومعنى ذلك أنَّ الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام للإنتقال الحراري المستمر فينضب معنى الطاقة في الأجسام ويومئذٍ لن تكون هناك عمليات طبيعية أو كيميائية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون».

أما عالِم الفلك إيرفنج ويليام نوبلتشى فيقول[٢]: **«علم الفلك يشير أنّ لهذا الكون بداية ونهاية وأنّ الكون يسير إلى نهاية محتومة وليس ممّا يتفق مع العلم أن نعتقد أنّ هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية، فالكون قائم على أساس التغير»**. فنلاحظ أن العلماء يؤكدون بأنّ لهذا الكون نقطة بداية من خلال النتائج العملية التي لا تحتمل الكذب ومن خلال حسابات دقيقة وهم قد وصلوا إلى حتمية وجود خالق للكون لأنهم عرفوا بأنّ المادة لا تخلق شيئاً بعد بحثهم في قوانينها فنوبلتش نفسه يضيف إلى كلامه قائلاً: **«فالمادة وحدها لا تكفي»** فلا بدّ من وجود خالق لكل ما هو مادي وتكون نقطة بداية هذا الكون منه وأكثر من ذلك أنّ العالِمين كيسيل ونوبلتش قد وضعا باعترافهما «بأنّ لهذا الكون نهاية» الإنسان في طريق مسدود أكان على مستوى اعتقاداته الفكرية أم على مستوى مصيره. إذاً إذا أنكر هذا

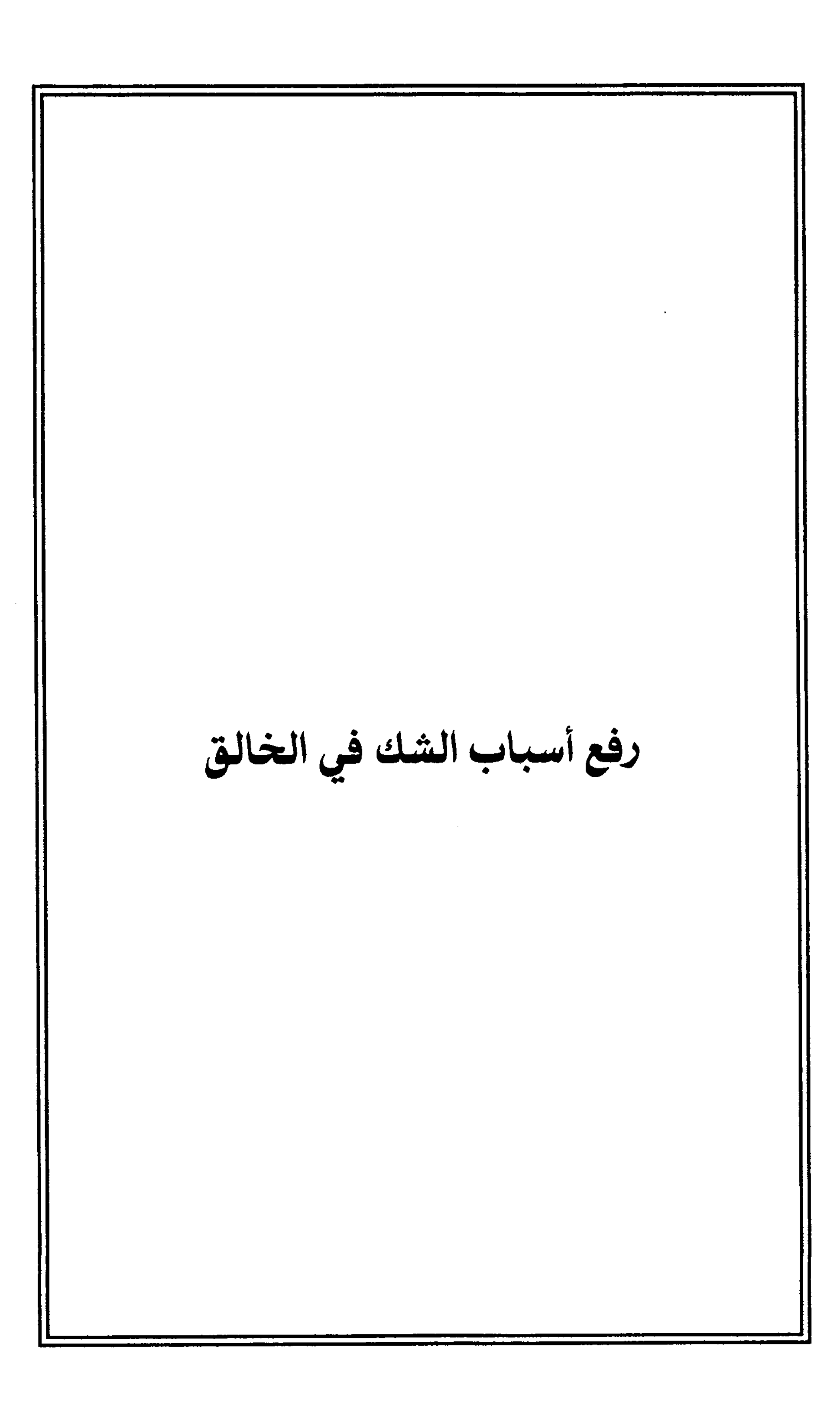
(١) المصدر: عقائد الإمامية للمجتهد السيد الزنجاني.
(٢) المصدر: عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

الإنسان حقيقة وجود صانع لهذا الكون ومدبِّر له فإنّ تعلقه بالحياة المادية وبالمادة في وجوده لن يحلّ مشكلات الإنسانية لأنّها نفسها المادة ليس لها بقاء ولا استمرار.

الحل إذاً مقابل الماديين واضح:

فالحلّ إذاً يكون بالعودة إلى مدبِّر هذا الكون الذي خلقه وصنعه لأنّ من خلق الحياة فهو بيده مصيرها واستمرارها ولن يقدر على إيجاد حل لهذه المعضلة ولأي اختلال كوني يحصل إلا خالق هذا النظام الكوني، لأن العلم والإنسان مهما تقدّم لن يجد حلاً لأنّ الأمر أعظم بكثير من قدرات الإنسان وتقدمه العلمي، فعلينا إذن سماع ما يقوله رُسُل هذا الإله الصانع العظيم بخصوص حقيقة الكون والنفس والحياة والموت وبدء الخلق ونهايته. فنحن نرى أنّ حاملي الشرائع السماوية لديهم الأجوبة على هذه المسائل الحساسة لأنّهم يرجعون إلى خالق الحياة والموت أمّا أهل العلم فيتخبطون في نظريات تجعل الإنسان يتخبّط في نظريات أشبه بالبحر الذي ليس له شاطىء فلا تصل النفس الإنسانية إلى طمأنينتها بل إلى موت الروح لأنها تبتعد عن ربط هذه الروح بخالقها والقادر على حل مشاكلها والوصول بها إلى السعادة المنشودة. فكن على ثقة أيها الإنسان بأن العلم كما أنّه لن يستطيع الإجابة عن ماهية الروح والموت فكذلك لن يستطيع الإجابة عن مسألة نهاية الإنسان والكون لأنّ الجواب هو عند خالق الإنسان والكون، فابحث عن الحقيقة وتعرّف عليها من مصادرها الصحيحة عند من يخبرك عن الإله خالق لكل الموجودات الذي بيده الموت والحياة وسر الجسد والروح وبداية الإنسان ونهايته.





رفع أسباب الشك في الخالق



رفع أسباب الشك في الخالق

إذا لم نرى الصانع لهذا الكون فهذا لا يعني أنّه غير موجود:

جُبِلَ الإنسان بطبيعته على الاعتقاد بما تدركه حواسه ولذا قال العلماء بأنّ أول علم يحصّله الإنسان هو في طفولته عن طريق مدركات حواسه فيبني عنده صور ذهنية عن طريق هذه الحواس فتصبح علماً. وعلى هذا الأساس ومع مرور الزمن كوّن الإنسان كماً كبيراً من النظريات والقوانين على قاعدة مراقبة ظواهر هذا الكون وعن طريق التجربة حتى وصل في عصرنا هذا وقد سيطرت النظرة العلمية على حياة الإنسان وربطته بالمادة وصنعت أمامه حاجزاً يمنعه من رؤية ما وراء المادة وما وراء الموت وأصبح الفكر المادي يسيطر على عقل هذا الإنسان والموت بالنسبة إليه نهاية المطاف، فكان من نتيجة ذلك تراجع الحياة الروحية لديه والتي هي أساس القيم والمثل وتراجع ما يرتبط بهذه الحياة الروحية ومنها الإيمان بالخالق. فلذلك أصبح من الواجب مخاطبة فكر الإنسان لتقويم معتقداته وتصحيحها لأنّ الحياة إنّما تقوم على التوازن بين الروح والمادة، وحتى تستقيم وتتزن حياة الإنسان ونفسه التي منها يخرج الصلاح وتنمو فيها القيم فلا بدّ من

الإيمان بوجود الخالق للروح الذي يحثها على سلوك طريق الخير والصلاح ولا بدّ من إزاحة جدار التفكير المادي ليرى الإنسان الحقيقة، حقيقة الخالق التي بها حياة الروح وما بعد الموت والتي معها الحياة الأبدية فعندها تخرج الروح من سجنها المادي في هذه الحياة السفلية والذي يسبِّب لها القلق إلى الفضاء الوسيع للحقيقة الذي يحقق لها الراحة والسعادة.

ولمّا قلنا بأنّ الأجوبة على مسائل الروح وأصل الحياة وما بعد الموت إنّما هي عند خالق الروح والموت والحياة فالمفترض أن نجد الأجوبة عند منْ كلّفهم الإله الخالق بايصالها إلى البشر وهم الأنبياء عليهم السلام وأوصياء الأنبياء. فإحدى أهم هذه المسائل التي يجب الجواب عليها هي أنَّ الإنسان بطبيعته يؤمن بما هو محسوس فكيف يؤمن بما لا يراه ولا يحسّه بحواسه؟

جواب الإلهيين:

فهنا أحد أوصياء نبي الإسلام وهو **الإمام علي بن موسى الرضا** عليه السلام **من الذين نوّروا الطريق أمام البشرية يوضِّح هذه المسألة حينما سأله أحد الأشخاص عن الخالق وكيف أنّه غير محسوس فكيف يستطيع أن يؤمن به فأجابه الرضا** عليه السلام: «**ويلك لمّا عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته أوَ نحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيضاً أيقنّا أنه ربّنا وأنّه شيء بخلاف الأشياء**»[1]. ففي هذا الجواب أراد الإمام الرضا عليه السلام أن يجيب وينير الأذهان على طبيعة وحقيقة الخالق

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

فيقول للسائل مبيناً إنّنا ندرك بالحواس كل ما هو مادي لأنّ جهاز البصر عند الإنسان وبقية الحواس مصنوعة لإدراك المادة أمّا ما خرجت طبيعته عن المادة فهي لا تدركه والخالق هو من هذا القبيل، وما جعلك أيها السائل تنكره وهو عدم إدراكه بالحواس هو نفسه الذي جعلنا ندرك أنّه وجود لا كالموجودات التي نعرفها وندركها، ونحن نعلم ونؤمن بوجوده عن طريق آثاره وتجلّيه في عجائب ودقة صنعه وغير ذلك ممَّا يُظهر هذا الوجود، ثمّ إننا لم نرَه بحواسنا فأدركنا بأنّه أعظم من إدراك الحواس له ولكن أحاطت بوجوده مدارك العقول فهو فوق إدراك البشر، ككل قوة مطلقة فوق تصورنا لا نراها ولكن نعلم قوانينها فتؤمن بوجودها لأنّنا نلاحظ فعلها في هذا الوجود وبأنّها ضمان الحفاظ على تركيب هذا الكون. فهكذا من خلال ملاحظة أفعال هذه القوة المطلقة آمنّا بوجودها وأدركنا بأنّها إله بغير صفات البشر، لفعلها الذي لا يقدر عليه البشر مجتمعون.

فالخلاصة أنّ السبب لعدم إدراك الخالق بالحواس هو أنّه ليس بمادة ليدْرك وهذا السبب هو الذي يجعل الإنسان يشكك ويبتعد عن حقيقة وجوده، ولكن ذلك لا يجب أن يكون عائقاً أمام الإنسان، فقد كشف العلم عن وجود قوى كثيرة مؤثِّرة وأساسية في حركة هذا الكون مع أنّها لا تُرى.

تقريب وجود الله إلى الأذهان:

لقد اكتشف العلماء الذرّة وتأثيرها الكبير في المادة والقوى الهائلة التي تحتويها مع أنّ الذرّة لا يمكن أن تُرى بالعين ومع أنها أيضاً أصل المادة لأنها أصغر جزء من المادة ولكننا لا نحسها ولا نراها. وقد اكتشف العلماء أيضاً بأنّها في حركة دائمة مستمرة ونحن لا نرى شيئاً من ذلك ولا نشعر بذلك ولا نحس بحركة المادة حولنا بل نشعر بسكونها، فالمفترض أنّ الإيمان بأنّ هناك صانع للكون هو أسهل على الإنسان من إدراك ما ذكرنا في المادة والذرة فيها لأنّ آثار الصانع سبحانه ظاهرة أمامنا، فالوجود ليس خفياً بموجوداته أمّا الذرة فهي خفية وحركتها شديدة الخفاء، فملاحظة أنّ هناك خالق للشمس الساطعة أسهل للتصديق من أن المادة الساكنة أمامنا تتحرّك في داخلها لأنّ الشمس لا تأتي من فراغ فهو أسهل وأقرب للأفهام لأنها ظاهرة ولا تحتاج إلى فكر أمّا حركة الذرات فتحتاج إلى عمليات وآلات معقدة لملاحظتها ومع ذلك فالإنسان يصدق بوجودها.

ثمّ لاحظ قوة الجاذبية والتي اكتشفها العلماء فهي الأساس لاستقرار الإنسان وكل ما يتحرك على سطح الأرض فهي التي تثبِّت كل ما يتحرك على سطح الأرض حتى لا يسبح في الفضاء فنحن لا نراها بالعين ولا نشعر بها وهي بشكل خفي، ولولا أنّ العلماء لم يخبرونا بذلك فلم نكن لنتنبَّه لذلك وكثيرة هي القوى على هذا الشكل التي لا نشعر بها والتي هي أساس في حركة الكون وأخبر عنها العلماء. فلماذا نصدِّق العلماء بذلك ولا نصدِّق الأنبياء عن تلك القدرة العظيمة التي تحرِّك كل القوى التي يتحدث عنها العلماء وهي وإن كانت خفية ولكن

آثارها ظاهرة جليّة، مع أنّ كلام الأنبياء أكثر إقناعاً عندما يتحدثون عن الروح والخالق لأنّ نفس حركة جسدنا ووجود الحياة فيه هي أوضح دليل على وجود الروح المحرِّكة له. وبالتالي ضرورة وجود من وضعها في هذا الجسد وبعث فيه الحركة والحياة. فهذه الروح التي بدونها يحصل الموت لهذا الجسد والتي عجز العلماء عن إدراك كنهها فهل رآها أحد بالعين المجردة ولو لمرة واحدة؟ ومع ذلك لا أحد ينكر أنّها موجودة فعلاً فكيف بالإله الذي هو أصل وجودها والذي هو كالروح في جسد هذا الوجود فإذا انتفى انتفى معه الوجود، فكيف نستطيع إنكار وجوده والذي هو أصل الحياة فينا؟ أليست هذه مكابرة ومعاندة للحقيقة.

ثمّ هذه الحافظة في الدماغ والتي هي أساس تفكير الإنسان ومخزن المعلومات عنده وهذا العقل الذي بدونه يصبح الإنسان حيواناً، فهل رأى أحدٌ غير قطعة لحم في الجمجمة وهل رأى أحدٌ أين هو مخزن المعلومات فيها وكيف يعمل والصوت الذي يصدره هذا العقل وهذه الحافظة حين عملهما هل أحدٌ يسمع أو يرى ذلك؟ ومع ذلك لا أحد ينكر وجود العقل ولا ينكر آثار أعماله في حياة الإنسان ودوره الكبير. فكيف ننكر إذاً القدرة والقوة التي أوجدت هذه الحافظة وهذا العقل في الإنسان فإنّنا إذا لم نكن نراها أو نسمعها فأيضاً إننّا لا نرى العقل ولكن نرى قطعة لحم فقط، فكما أدركنا وجود العقل وتأثيره في حياتنا من خلال آثار عمله وتفكيره فكذلك المفترض أن ندرك وجود صانعه من خلال آثار عمل هذا الصانع التي منها نظام عمل أعضاء الإنسان ودقة هذا العمل وانتظامه والتي منها أيضاً سيدها هذا العقل. فالروح

والعقل وباقي الأعضاء وعملها كل ذلك مع الجاذبية فكلها وإن لم نراها، ولكنها لا بدّ أن تكون راجعة إلى قدرة صانعة لها تسيِّرها ولكن لا نراها ولكنها موجودة فعلاً فكل ذلك يدلُ على وجودها.

نضيف فنقول أنظر موجات البث اللاسلكي التي هي أساس الإتصالات وإلى البث الإذاعي والتلفزيون، فإنك تجد في التلفزيون أن هناك صور تتحرك وأشخاص يتكلمون في بيتك وغرفتك المقفلة الأبواب والشبابيك من خلاله، فهل رأى أحدّ موجات البث التي تُحدِث ذلك وهل لمسها أو سمعها أحد وهي داخلة إلى الغرفة والبيت؟ ومع ذلك فقد أثبتها العلماء بالتجربة ونتائجها واضحة أمام أعيننا، إذن فلماذا نصدِّق العلماء ولا نصدِّق الأنبياء عن وجود الصانع مع أنّ نتائج صنعته بدقتها وتعقيدها ونظامها تدل على وجود صانع مفكِّر قدير فوق مستوى تفكير عقل الإنسان وصنعته هي الشاهد على ذلك. وكذلك الأمواج الكهربائية المغناطيسية والتي كان أول من اكتشفها جيمز العالم الذي أثبت وجودها بمعادلات رياضية والتي هي تسيِّر كثير من الآلات مع أنّنا لا نرى هذه الأمواج ولكنها موجودة ونرى تأثيرها في حياتنا عبر الآلات التي نستعملها، فلماذا نؤمن بوجودها ولا نؤمن بوجود القوة التي تسيِّر الكون بأكمله وتسيِّر القوى الروحية أيضاً، فالإيمان بالقوة التي تسيِّر وتدير وتدبِّر القوى الروحية والمادية الخفية يجب أن يكون نتيجة بديهية لاعتراف العلماء بوجود قوى خفية تتحكّم في الوجودات ومؤثّرة فيها لأن تأثير هذه القوى لا بدّ أن تعود إلى خالقٍ لهذه القوى وضع فيها هذا التأثير، فكلما وُجدت هذه القوى الخفية فلا بدَّ من وجود القوة التي وضعت فيها هذا التأثير

ونظّمت قوانينها وإن كنّا لا نراها بالعين فتأثير القوى يدلّ على المؤثّر الأول الذي أعطاها هذه الخاصية. فإذا كان تأثير الخالق خفياً فهذا ليس سبباً لإنكار وجوده وخاصة في زمن الفكر وابتعاد الجهل عن أفكار ونفوس البشر.

أجوبة من أهل المعرفة بالخالق:

لتوضيح المسألة وتسهيل موضوع الإحاطة بوجود الخالق سُئِل ابن بنت نبي الإسلام محمد ﷺ الإمام جعفر الصادق عليه السلام من قبل شخص: **ما الدليل على حدوث العالم وما الدليل على المُحْدِث أي الخالق فأجاب الصادق** عليه السلام **«ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيّد علمت أنّ له بانياً وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده»**[1] **فقال السائل «ما هو» أي ما هو هذا الباني للكون فأجابه الصادق** عليه السلام **«هو شيء بخلاف الأشياء لا جسم ولا صورة ولا يُحسّ ولا يُدرك بالحواس الخمس لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدهور ولا يغيره الزمان»**[2] فعاد السائل ليقول: «فإنّا لم نجدْ موصوفاً إلا مخلوقاً» ويقصد السائل أنّك إذا توهمت الخالق إذن فهو مخلوق له صورة خارجية محدّدة بشكل يمكن أن نتصورها وهذه من خصائص المخلوقات فكيف يكون ذلك للخالق. **فيجيب الصادق** عليه السلام: «الوهم بمعنى أنّه موجود دون أن نتصوّر منه أمراً إيجابياً حتى يستلزم الإحاطة بل أنّه ليس بمعدوم»[3]

---

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

فالصادق في هذا الجواب يريد أن يبيِّن بأنّ الإدراك بالحواس للمادة التي تتشكّل بشكل وتُحدُ بحد وتُعرف بحجم ووزن فعندها يمكن الإحاطة بها من طريق النظر أو تصوّرها بصورة معيّنة أما الخالق فهو ليس بمادة ولا بوجود مادي فليس له صورة ولا يُحَدُ فهو لا يشكّل بشكل فلا يجب أن نشبهه بصفات خاصة بالمخلوقات فإنّما تصوّره هو تصورٌ أنّه موجود لا تصوّر صورة له. ثم يؤكِّد الإمام عليه السلام ذلك حينما يعود السائل ليقول «أنت قد حدّدته إذ ثبّتّ وجوده».

فيجيب الإمام عليه السلام: «لم أحدِّده ولكن أثبتّه» فهذا تأكيد أننا نثبت الخالق، فهو موجود ولكن لا بالشكل والصورة فهنا نعود لما أجابه الإمام الرضا عليه السلام فما سبق «أنّنا حين لم نرَ الخالق لأنّه لا صورة له ولا شكل عرفنا أنّه لا كالأشياء فعرفنا أنّه موجود لا كالموجودات ووجود فوق إدراك البشر».

ثمّ يأتي الإمام الرضا عليه السلام ليكمل الجواب جواب جده الصادق عليه السلام وهم أهل هذا البيت العارف بالخالق ليفصّل المسألة حين سأله سائل عن الخالق وقال «حدّده لي» فأجاب عليه السلام «لا حدّ له»[1] فقال السائل «لِمَ» فأجاب الرضا عليه السلام «لأنّ كل محدود متناه إلى حد، وإذا احتمل قبل التحديد احتمل الزيادة وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان»[2] فيبيّن الإمام الرضا بأنّ كل محدود له حد يقف عنده فهو إذن يحتمل الزيادة والنقصان، فإذا كان هو النقصان فقد قلنا

(١) المصدر: عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

(٢) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

بأنّ التغيّر والتبدّل خاص بالمادة أمّا الإله فلا يعرف هذا التبدّل والتغيّر فلا يعرف النقصان كما لا يعرف الزيادة لأنّ وجوده أزلي ثابت فهو كامل تام لا يحتاج إلى الزيادة، ودليل تماميته وكماله هو كمال صناعة هذا الكون وكما قلنا بأنَّ الكمال لا يصدر إلا عن قدرة كاملة لتدرك معنى الكمال، والزيادة تعني أنّ الخالق أصبح مركباً مع الزائد والتركيب هو من صفات الأشياء لأنها تعني بأنّ هذا الشيء محتاج إلى الزيادة وإلى أجزاءه المركب منها فهو دليل نقصان فكيف يكون الناقص خالقاً فعندها لا يستطيع أن يخلِق، وإذا فقد هذا المركَّب أحد أجزاءه فهو لم يعد تاماً فهو لم يعد كاملاً. إذاً فالخالق ليس له حد ولا صورة ولا شكل لأنّ الحد والشكل يعني أنّه مستقرٌ في مكان والخالق وجوده لا يخلو منه مكان فلا يحدّه مكان ولا زمان فإذا كان الكون لا متناهي فكيف بخالقه أن لا يكون كذلك لا متناهي.

أيضاً الإمام جعفر الصادق عليه السلام جد الرضا عليه السلام يوضِّح أكثر كيف أنّ ذات الله الإله الخالق لا حد لها في جوابه حينما سُئل «كيف هو الله الواحد» **فأجاب الصادق عليه السلام بقوله: «واحد في ذاته لا متجزىء ولا يقع عليه العد»**[1] فجواب الإمام عليه السلام يعني بأنّ الخالق لا حد له فلذلك لا يأتي بعده شيء ولا يليه شيء في وجوده فليس هناك ثاني بعده فلا يصدق عليه العدد فهو واحد لا ثاني بعده ولا شيء قبله فوجوده إلى ما لا نهاية ولكن العقل البشري لا يدرك إلا كلُ شيء محدود وهذا أحد الأسباب التي تجعل هذا العقل لا يحيط بوجود

(١) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

الخالق، فحيث يمتد الوجود وتمتد المجرّات يمتد وجود الخالق سبحانه بل هو أبعد من ذلك فهكذا نفهم بأنّ الله لا حد له حتى يُرى أو يُتصور في الأذهان بل ما يرى ويُتصوّر هي الأجسام التي لها حدود، فالأشكال للأجسام تنتج عن حدودها ونحن نرى أشكال الأجسام بحدودها المشكِّلة والله سبحانه لا حد له ولا شكل.

يأتي في النهاية السؤال الذي يسأله كثيرون وقد سأله شخص للإمام الصادق عليه السلام حفيد نبي الإسلام حينما قال له «**كيف يعبُد الخلق الله ولم يرَوه» فأجاب** عليه السلام : «**رأته القلوب بنور الإيمان وأثبتته العقول بتغطيتها وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها**»[1]. فالصادق عليه السلام يشير كما بيّنا بأنّ العقل هو طريق لمعرفة الله وإثبات وجوده، وإذا أكَّده العقل آمن القلب معه وأبصره بإيمانه، وتركيب هذا الكون بكل ما فيه من الحكمة والتدبير هو دليل لبصر الإنسان للوصول إلى الحقيقة فيرى الخالق في خلقه ولذا قال أحد العلماء «كل ما في هذا الكون يصرخ بأنّ له صانعاً» ثم الأنبياء والرسل والكتب السماوية أكدت ذلك إذاً فلنكن منصفين فنستعمل ما وهبنا الخالق من عقل مفكِّر وفطرة سليمة وبصر للوصول إلى معرفته والإقرار له بعظيم صنعه وعظمة وجوده ولنطَّلع على ما في كتبه وما أتى به أنبياءه ورسله.

---

(١) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

لماذا لا يُرى الله ولا يُتصوّر؟؟؟:

أحد الأسباب التي تشكِّل حاجزاً أمام اعتقاد الإنسان بالخالق هي أنّ الإنسان لا يعتقد إلاّ بما يرى ويدرك بالحواس وذلك ليحكم بشكل قطعي على الأشياء، ولكن هذا الطريق للاعتقاد غير كاف وناقص لأنّ المحسوسات هي جزء ممّا يحيط بالإنسان وكما بيّنا فهناك موجودات كثيرة تحيط بالإنسان ولكنّنا لا نشعر بها ولا نراها ولكنها موجودة فعلاً وأوضحها وجود الروح، فهي أصل وجود الإنسان ومع ذلك فهل هناك من رأى الروح يوماً؟، وهكذا هناك أناس كثيرون ارتفعوا فوق مستوى المدركات الحسية ووصلوا إلى الحقيقة لهذا الصانع العظيم بنور العقل والفطرة السليمة. فلإزالة الحواجز من أمام الأبصار ورفع الشبهات إعلم بأنّ الله لا يرى بالبصر ولا يُدرك بالحواس لأن الحواس تدرك الأشياء التي تتكون من مادة فالمادة هي التي تتصف باللون والشكل والرائحة والله سبحانه ليس وجوده مادي بل هو خالق المادة، والبصر إنّما يرى تشكّل أجزاء المادة على صور معيّنة فلذا لا يرى الله لأنّ ليس له أجزاء مادية لتتشكّل فهو ليس بجسم فلا حدود له ولا يصدر عنه صوت ولا لون له ولا شيء من صفات المادة. فأنت تدرك الأجسام المادية إذا اصطدمت بك فهل شعرت يوماً بحركة الروح في جسدك، فلم نسمع بذلك من أحد وذلك لأنّ الروح ليست بمادة ولا أجزاء لها لتسمع حركتها أو تشعر بها، فهكذا وجود الخالق سبحانه فإنّك لا تشعر به ولا تسمع صوته مع أنّه موجود مع كل إنسان في هذا الوجود كوجود الروح في الجسد. وبما أنّه سبحانه لا جسم له ولا أجزاء مادية فلا يوجد في مكان محدّدّ لأن الوجود في مكان يفرضه حجم الأجسام

وكمية أجزاءها ولكنه سبحانه بما أنّه وجود غير مادي ولا جسم له وليس محدود بحدّ كما بيّنا فهو في كل مكان فلا يحويه مكان وسع هذا الكون بل أبعد من ذلك، فكيف يخلق الخالق شيئاً ويستقر ضمنه وفي حدوده، فوجود الله يملأ الوجود ولا يخلو منه مكان كما تملأ الروح الجسد ولا يخلو منها مكان فيه ووجودها أبعد وأوسع من وجود الجسد فكذلك الله وجوده أوسع وأبعد من حدود هذا الكون اللامتناهي، إذاً فكيف يمكن للبصر أن يرى ويدرك اللامتناهي الذي لا حدود له.

فقد تبيّن لكل كيف أنّ الخالق سبحانه هو في كل مكان ومع كل شيء لأنّه لا حدود له ولكن لا تشعر به ولا تسمع صوته فهو مع كل الموجودات ولكن دون أن يحلّ أو يستقر فيها، ولذا فهو مسيطر على كل الوجود والموجودات ولكن دون أن نشعر بذلك فكما قوة جاذبية الأرض تتحكّم بكل ما على الأرض دون أن نراها أو نشعر بها فكذلك الخالق سبحانه يتحكمّ بكل ما في الأرض ولكن دون أن نشعر بحواسنا ولذا سمّى نفسه إلهاً وسمّى نفسه إله السماوات والأرض لأنّ وجوده يتعدّى حدود السماوات والأرض ويتحكم بها ولكن دون أن نشعر بذلك ولكن نرى الآثار من انتظام وتدبير لهذا الوجود.

لا يمكن أن يكون لله صورة ذهنية:

أمّا لماذا لا نستطيع تصوّر الخالق سبحانه فلأنّ الإنسان إنّما يتصوّر صور الأشياء والله سبحانه ليس له صورة لأنّ الصورة هي من توابع الجسمانية والشكل والله الخالق ليس له جسم ولا شكل، أو للحصول

على صورة يتصوّر الإنسان ما يشبه الذي يريد صورة عنه ليقربه إلى ذهنه وهذا التشبيه يقتضي أن تكون هناك صفات مشتركة بينهما وأن يشتركا في حقيقتهما والخالق سبحانه ليس هناك منْ له صفاته ولا يشترك أحدّ معه في حقيقته إذ لا إله سواه فلذلك لا تجد للخالق شبيه تشبَّهه به لتقرب صورته إلى الأذهان فهو إله واحد لا شبيه له وليس هناك من يجاريه في الصفات. فمّما ذكرنا تفهم كيف أنّك لا تجد عند من يعبدون الله عبادة حقيقية تماثيل لهذا الإله العظيم في وجوده لأنّ التمثال هو مثلّ لأصل الشيء وصورة له وعدم وجود تماثيل يدل على أنّه لا جسم ولا شكل للخالق سبحانه وإلاّ لبيّنها الله للبشر ليقدسوه ويعظموه بوضع صورة له.

نستنتج أيضاً من ذلك بأنّ الله لا يمنعه حاجز مادي أو غيره من الوصول إلى الأشياء وهو ليس له حركات جسمانية تصدر أصواتاً لأنّ عدم القدرة على اختراق الحواجز والاحتياج للحركة وصدور الصوت عنها هي من خاصية الأجسام وقد قلنا بأنّ الخالق سبحانه لا جسم له، وهو ليس بحاجة لأن ينتقل من مكان إلى آخر ليحتاج إلى الحركة فهو في كل مكان في هذا الوجود وليس له مكان معيّن يستقر فيه ولا موضع يشغله دون موضع آخر فهو ليس بحاجة إلى المكان لأنّه ليس بجسم وهو خالق الأمكنة فلا يحلُ بها فهو أكبر من ذلك أكبر من المكان والزمان فليس له زمان يوجد فيه دون زمان آخر فهو قبل زمن أي شيء وباقٍ إلى الأبد لأنّ به استمرار الوجود، فالزمن يحدّد بداية الشيء ومراحله ونهايته والخالق سبحانه ليس له بداية فهو أزلي وليس له نهاية فهو أبدي. ثمّ أنّه سبحانه لا يسهو ولا ينسى ولا ينام لأنّه كما قلنا بأنّ

ذلك من صفات الأجسام وليس الإله من الأجسام إذاً فوجوده مستمر لا ينقطع للحظة عن الوجود ولا ينقطع تدبيره للكون ولو للحظة وكيف ذلك وهو لا يعرف النوم ولا الغفلة ولا التعب، فالتعب يأتي بعد الحركة والخالق سبحانه ليس بجسم يتحرّك بل هو فاعل عن طريق تأثيره في الموجودات فهو قادر قدير دون أن يبذل جهداً فليس له صفات البشر لكي يشبّه لشيء. فاعلم إذاً أنّ عظمة هذا الخلق وهذا الكون لا يناسبه إلاّ إله بهذه الصفات وبهذه العظمة فطابق خبر الأنبياء عليهم السلام وما وصفوا به هذا الإله العظيم ما هو موجود فعلاً من عظمة هذا الكون فصدقناهم وإن لم ترَ الخالق ولم نسمعه مباشرة بعدما عرفناه منهم.

عظمة الخالق بلسان آنشتاين وتوضيح لعدم إمكانية تصور الله:

آنشتاين أشهر شخصية علمية في الزمن الحديث يُظهر كيف أنّ الإنسان لصغره أمام الخالق يجد فكرة وصورة الخالق بعيدة عن ذهنه. فقد اختلف جماعة من اللاهوتيين والعقليين الماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات فأحبوا أن يتحاكموا إلى آنشتاين ليسمعوا حكمه وأرائه في الخالق، فأجاز لهم أن يمكثوا ١٥ دقيقة لكثرة مشاغله فعرضوا عليه سؤالهم قائلين ما رأيك في الخالق سبحانه فأجاب[(١)] **«لو وُفقت لأن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع المكروبات فتكلمت مع مكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس الإنسان وسألته أين تجد نفسك لقال إنّي أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة**

---

(١) المصدر: كتاب عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

أصلها ثابت وفرعها في السماء، عند ذلك أقول له إنّ هذه الشعرة التي أنت على رأسها هي شعرة من شعرات رأس إنسان وأنّ الرأس عضو من أعضاء هذا الإنسان، فماذا تنتظرون هل لهذا المكروب المتناهي في الصغر أن يتصوّر جسامة الإنسان وكبره. كلا إنّي بالنسبة إلى الله تعالى لأقل وأحط من هذا المكروب بمقدار لا يتناهى فأنّى لي أن أحيط بالله تعالى الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تُحد».

فهل هناك شك بالخالق بعدما سمعنا مقالة أسمى فكر علمي وأكثر العقول ذكاءاً في هذا الزمن وهو يعترف بذلك بعد أن عاش حياته في البحث واكتشاف أسرار المادة وقوانينها ويقر في النهاية بأنّ كل هذه القوى المادية أصلها قوة واجدة نحن أصغر من أن نتصورها وأنّ هذه القوة هي التي أعطت للإنسان الصغير في حجمه هذه المواهب والقدرات ليتحكّم بقوى هذا الكون وبالمادة، فيجب علينا على الأقل أن نعترف بوجود هذا الخالق ونتعرّف عليه وننضوي تحت سلطته وهذا ما عرفناه من شهادات كبار أهل الفكر والعلم الذين شهد لهم العالم بالفكر النيّر والعقول المضيئة. أفليست هذه الشهادات حافزاً للإعتراف بالخالق.

الرسل إلى البشر دليل على الخالق والتاريخ لا يكذب:

لنفترض أنّنا اختلفنا في العقائد فهذا شيء. أمّا ما حصل في الواقع وهو يؤكد إعتقاد معيَّن فهذا لا يمكن إنكاره وهو دليل على صحة هذا الاعتقاد. فما دوّنه التاريخ عن ورود الأنبياء عليهم السلام إلى هذه الأرض والأحداث التي جرت معهم بغض النظر على أن تكون قد صدقتهم أم لا ، فهم قد وُجدوا فعلاً وهذا لا خلاف فيه لأنّ التاريخ قد أخبر بذلك وأهل العلم وعامة الناس متفقون بأنّه لم يكذب بخصوص ذلك وهذه أمور تدرّس في المدارس والجامعات حتى يومنا هذا. فاسمع إذاً **فيلسوف المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام وكيف أن التاريخ يؤكد قوله لاعطاء الدليل على وجود الخالق فيقول عليه السلام : «يا بني اعلم أنّه لو كان لربك شريك لأتتك رُسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه»**[1] فعليّ والتاريخ متفقان على أنّه لم نعلمْ إلاّ أنّ هناك ربّ واحد قد بعث بالرُسل، وكُتّاب التاريخ متفقون على ذلك برغم اختلاف اتجاهات الأشخاص الذين كتبوه بأنّه هناك رُسل معروفون بأسمائهم وبلادهم قد جاؤوا وأخبروا عن حقيقة واحدة وهي أنّ هناك إله خالق لهذا الكون واحد لا شريك له وأعطوا صفات هذا الإله ودعوا إلى عبادته وتحدثوا عن أسرار كانت خافية على الإنسان ووضّحوا مسائل كانت تحيِّر الإنسان والفكر البشري، بينما نفس هذا التاريخ لا يتحدث عن إله آخر قد بعث منْ يدعي بأنه هو مليك هذا الكون بل يخبرنا بأنّ رسل الله أتوا بالأدلة والإثبات على وجود الخالق الواحد وملكيته لهذا الكون

---

(١) المصدر: نهج البلاغة لمحمد عبده.

وتحدثوا عن صفات هذا الخالق وبأنّه واحد بلا شريك وبيّنوا حقيقته ولم يختلفوا فيما بينهم على تفاصيل ذلك، فقد اتفقوا على حقيقة واحدة لهذا الخالق ونفس الصفات برغم الفترات الزمنية المتباعدة جداً بينهم واختلاف لغاتهم وبلدانهم ونقلوا الأدلة على ذلك وحلّوا ألغازاً عن بدء الخلق والموت وما بعد الموت وما يتعلق بحياة ما بعد الموت للإنسان.

فهذا الإتفاق بينهم وعدم الاختلاف ليس إلاّ دليل صدقهم وصدق حقيقة ما جاؤوا به وصدق من بعثهم بذلك وإلا كيف يتفقون على نفس الخبر وعلى تفاصيله برغم الفترات الزمنية المتباعدة بينهم إذا لم يكن المصدر لأخبارهم واحد ومن بعثهم واحد، وهكذا كان كل رسول يخبر عن الذي سيأتي بعده ونشأت الديانات السماوية التي تدعو جميعها إلى عبادة هذا الإله الواحد بغض النظر عن التحريف الذي حصل، فهذا يدلّ على أن المدبّر لبعثة الأنبياء واحد بينما لم نسمع في التاريخ بأنّ هناك قوماً أتوا من السماء أو من كوكب آخر أو من أعماق البحر وادعوا بأنّ لهم يد في خلق هذا الكون أو في خلق البشر، وأمّا رسل الإله الواحد فقد أخبروا بأنّ الإله المعبود قد خلق البشر وخلق الكون وقدّر الحياة والموت وبأنّ في يده السلطة على الكون والبشر وهو المدبّر والحاكم عليهم في هذه الحياة وما بعد الموت. فإذا كان كل ما أخبره الأنبياء والرسل صحيحاً ولم تصدقهم أيها الإنسان في هذه الحياة فأين المفر بعد الموت؟ هل فكرّت في ذلك. فماذا يقول الفلاسفة في ذلك إذاً.



الجزء الثاني

الفلاسفة والحكماء يعترفون
«الله هو الحقيقة
التي تبحث عنها النفس الإنسانية»



اعتراف الفلاسفة بالخالق

ذكرنا في الحديث عن مسائل العدل وسعادة الإنسان وهدف وجود الإنسان في هذه الحياة بأنّ النفس الإنسانية سعت منذ الزمن الأول لوجود الإنسان على هذه الأرض للبحث عن السُبل التي ترتقي بها إلى مراتب الكمال وتوصلها إلى السعادة وذلك لأنّ هذه النفس مخلوقة على حب الطمأنينة والإستقرار وما يوصلها إلى ذلك فهي ترتاح وتسعى إلى ما فيه استقرارها ورضاها وفي نفس الوقت تبتعد عمّا فيه ألمها وشقاءها وتسعى إلى إلغاء مصادر قلقها، لأنّ استقرار النفس فيه راحة الإنسان وتقدمه وقلقها يعني اهتزاز حياته وإنهيارها.

الفلاسفة والحكماء هم أكثر الناس الذين اهتموا بدراسة هذه النفس الإنسانية، لِما عرفوا من أهميتها وارتباطها الشديد بحياة الإنسان وأسس وجوده، وبأن تقدّم الحياة البشرية واستمرارها رهن بصلاح هذه النفس وكمالها لتستطيع قيادة المجتمع أو لتستطيع تلقِّي المبادىء السليمة التي يبنى المجتمع على أساسها. ولأجل ذلك بحث هؤلاء الفلاسفة عن المؤثِّرات التي تؤثر على هذه النفس وعن الأسباب التي تساهم في رقيِّها أو تؤدي إلى انحطاطها ودرسوا انفعالات هذه النفس

ووضعوا لها القوانين والضوابط. وبما أنّ الإنسان حامل هذه النفس وهو جزء من هذا الكون الكبير، فكان لا بد أن يتلازم البحث عن أسرار هذه النفس مع البحث عن أصل خلق الإنسان وأسرار الكون والعلاقة بينهما وارتباطهما في هذا الوجود وسر وجودهما.

إذاً فهذا التلازم بين وجود الإنسان ووجود هذا الكون والبحث عن أسراره جعل من الطبيعي أن يصل هؤلاء الفلاسفة إلى أصل وجود الكون والإنسان وأن يصلوا إلى البحث عن خالق الكون والنفس، لأنّه لا يمكن معرفة أسرار النفس والكون إلا إذا عرفوا سر وجودهما وذلك يؤدي إلى البحث عن الموجد لهما وارتباطهما به.

طاليس الرياضي والفيلسوف يقول:

فها هو طاليس العالم والفيلسوف اليوناني الذي اشتهر اسمه في القوانين الرياضية وما من طالب درس الرياضيات إلا وعرف اسمه، فهو يصرِّح قائلاً[1]: «إنّ كل بداية ليست في الحقيقة سوى تغيّر مادي من حال إلى حال فيجب إذن تقبُل أو تصوُر شيئين أزليين، هما المادة والله». فطاليس يعترف ببديهة العقل بوجود صانع للكون ولكنه وقع في مغالطة وهي أنّ المادة وجودها أزلي مع الله سبحانه وذلك لأنّه اعتقد بأنّه إذا وجد الوجود من المادة فلا بدّ أن تكون موجودة أزلية مع الصانع فهذه مغالطة وسنرى بأنّ الفلاسفة الذين أتوا بعد طاليس قد صحّحوا هذا المعتقد. فهو حين يتكلم عن كل بداية فإنّه يقصد بداية الكون والوجود فإذا كانت البداية هي انطلاق الوجود فهناك إذاً أزلي

(١) المصدر: المِلَل والنِحَل ج ٢ ص ٢٦٨ للشهرستاني.

هو أساس بداية كل وجود وكل حركة، فليس قبله شيء وإذا كان ليس قبله شيء فهو لم يوجده شيء، وإذا لم يوجده شيء فهو ليس ككل شيء فهو متفرِّد في طبيعة وجوده وفي صفاته ولهذا فهو إله لا شيء يماثله وليس له صفات البشر، وهذا ما دعا طاليس إلى تقبّله وتصوّره فهو أصل كل بداية وهو مبدىء كل بداية.

فيثاغورس يوافق طاليس ويصحّح المعتقد:

يأتي فيثاغورس الفيلسوف والعالم الرياضي اليوناني الذي عاش في الدولة اليونانية التي عاش فيها طاليس، وهو أيضاً لا يقل شهرة عنه فكتب الرياضيات الحديثة تشهد له بذلك فيقول فيثاغورس معترفاً بوجود الصانع ولكن مصححاً مغالطة طاليس وبأنّ وجود الصانع لا يمكن أن يكون هناك في الأزل شيء معه[1] **«إنّ الله واحد لا كالآحاد. فلا يدخل في العدد، ولا يدرك من جهة العقل، ولا من جهة النفس، ولا من المنطق النفسي بصفة فهو فوق الصفات الروحانية... غير مُدرَك من نحو ذاته وإنّما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله»**. فبذلك يعترف فيثاغورس بوجود الله وبوحدانيته فهو مقر بأنّ وحدة هذا الكون لا بدّ أن تكون صادرة عن واحد، وهو واحد لا كالآحاد لأنّه كما بيّنا لا حد لوجوده ليأتي بعده عدد ولا قبله فلا وجود يحدُه قبله وبعده ليكون عدداً معه قبله أو بعده فهو سبحانه واحد لا يدخل في العدد. فاستنتج فيثاغورس بعقله الذي توصّل به إلى القوانين الرياضية المعقّدة بأنّ الله سبحانه لا يدرك بالحواس لأنّه فوق صفات الموجودات فلا شيء مثله

(١) المصدر: قصة الإيمان ص ٢٩.

ليوصف به وهو ليس روح لتكون له صفات روحانية ولا مادة لتكون له صفات مادية ولكنه أدرك وجوده من خلال آثاره في هذا الكون فعظمة هذا الكون تدلّ على عظمة صانعه، فيشارك فيثاغورس طاليس بأنّه لا بد لهذ الوجود من موجِد وبالتالي فإنّ كل الموجودات مرتبطة به.

يحدِّد فيثاغورس الإرتباط بين الإنسان وخالقه فيقول: «وكل عالم من العوالم يدرك الله بقدر الآثار التي قدِّر له إدراكها من خلق الله، وهداية الإنسان مقدّرة على الآثار التي فُطِر عليها»[1]. فعلى قول فيثاغور كل إنسان قادر على إدراك وجود الله سبحانه ولكن بقدر إدراكه للآثار التي توصله إليه، فعلى هذا الأساس فما حجة الإنسان في هذا الزمن الذي انفتحت فيه أبواب العلم والمعرفة بآثار الله؟ فأصبح الإنسان محيطاً بحقيقة الموجودات بشكل كبير فالطبيب مُلِم بتفاصيل جسم الإنسان بشكل دقيق والفيزيائي مُلِم بأجزاء المادة وتركيبها وقوانينها والكيميائي كذلك بتفاعلات العناصر للمادة والطبيعي بأسرار الطبيعة، إذاً فإنسان هذا الزمن قد قدِّر له إدراك آثار الله إدراكاً كبيراً. فبحكم فيثاغورس فهذا الإنسان مهيَّىء تهيئة كبيرة لإدراك وجود الله لإنكشاف أسرار الكون أمامه.

فليس لهذا الإنسان إلا إتباع الطريق التي اتبعها فيثاغورس وهي التفكّر والتدبّر في الآثار الكونية التي توصل بالدليل العقلي إلى الخالق لهذا الوجود من خلال القدرات التي وضعها الله في الإنسان وهيئها له. فلماذا قوانين فيثاغورس الرياضية هي ثوابت نقبلها ولا نسعى إلى

(١) المصدر: المِلَل والنِحل ج٢ ص٢٨٨ للشهرستاني.

قبول ما هو الأهم وهو ضرورة السعي إلى حقيقة هذا الوجود والوصول إليه، فنتبع الطريق التي توصّل عبرها فيثاغورس نفسه إلى الله عن طريق التفكير والعقل.

سقراط يعترف «أقدم التأسيسات الإنسانية وأحكمها هي أكثرها تمسكاً بالدين»:

يتابع سقراط وهو الفيلسوف اليوناني المعروف والذي هو أشهر من أن يُعرّف الطريق الذي سلكه طاليس وفيثاغورس في الإعتراف بوجود الخالق الصانع للكون فيقول: **«الله هو جوهر فقط.... وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق العقلي قاصر عن وصفه وتحققه وإدراكه، لأنّ الحقائق كلّها من تلقاء جوهره... إنّه ليس بذي نهاية من جهة العقل، إذ ليس يحدّه ولا من جهة الحس إذ لا يحسّه»**[(١)]. فسقراط يعترف بوجود الله وبأنّ وجوده سبحانه لا يستطيع العقل أن يدركه ويحيط به لأنّ العقل لا يستطيع الإحاطة إلا بما سمحت له قدراته ووصل إليه أفق تفكيره وكما قلنا فإنّ الله هو أبعد من ذلك لأنّه أبعد من أفقنا فهو لا محدود والعقل يدرك المحدود، ولا تدركه الحواس لأنّه ليس وجوداً مادياً محسوساً.

ثمّ يحتج سقراط عن طريق المنطق العقلي فيقول أنّه كيف يمكن إدراك جوهر الله وصفاته وكل شيء في الكون من وصف وصفات وإدراكات ومحسوسات عقلية ونفسية هي منه ومن صنعه فكيف تستطيع الإحاطة به وهي منبثقة عنه كنور الشمس فهو يعطي إخباراً جزئياً عن

---

(١) المصدر: المِلَل والنِحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٩.

حقيقة الشمس أما حقيقة تكوينها فلا يعطيه النور فلأنّه منبثق عنها، فالمصنوع لا يستطيع بلا شك الإحاطة بالصانع فالمصنوع يستطيع الإحاطة بالصانع فقط بحسب القدرات التي وضعها فيه هذا الصانع. إذاً فكيف يستطيع المخلوق الإحاطة بخالقه إلا من خلال القدرات التي وضعها فيه ومن هنا سنرى بأنّ الوصول إلى معرفة الخالق هو بالرجوع إلى خالق الكمال الذي هو متصف بهذا الكمال فهو أصل الكمال وهو الكمال المطلق ويستطيع قيادة الإنسان إلى حقيقة الخالق. فنحن لمْ نعرف صفات الخالق وجوهره إلا بعد أن وصف هو نفسه وأخبرنا بذلك رسله، فوجدنا بأنّ عظمة الصنعة توافق صفات الصانع فآمّنا به ولولا ذلك ما إقتربنا إلى حقيقته سبحانه.

سقراط لا يقف عند هذا الحد باعترافه بوجود الخالق بل يتعدى ويغوص في حقيقة تأثير الله على الكون وعلى الكائنات فاسمع في إحدى نقاشاته مع إحدى الشخصيات العلمية اليونانية ويُدعى **أريستوديم فيقول له: «هل يمكن أن يكون من الإتفاق والصدفة أن تُخلق الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة؟ عين ترى، أذن تسمع، أنف يشم ولسان يتذوق، والعين تحاط بحراس لحساسيتها وضعفها فتقفل عند النوم والحاجة، تُحرس بالرموش والحاجب، ويُجعل للأذن جهاز خارجي ليجمع الصوت (شحمة الأذن) هل يمكن أن يكون كل ذلك من صنع الصدفة؟. والميل المودع في النفوس للتناسل والحنان المخلوق في قلوب الأمهات لأولادهن مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمه، هل يمكن أن يكون كل ذلك من صنع الصدفة؟»**[١] فسقراط هنا

(١) المصدر: الإسلام في عصر العلم ص ١٦٧ الطبعة المصرية لمحمد فريد.

اتّبع الأدلة العقلية التي ذكرناها لاثبات وجود الخالق سبحانه فاعتمد على مبدأ التناسب في المخلوقات المختلفة اختلافاً كبيراً وكذلك العناصر ومع ذلك نرى تلاءمها مع بعضها البعض بشكل عجيب ملفت يلفت انتباهك إلى وجود من ألفها هذا التأليف العجيب حيث أصبحت وحدة موحدة في عملها وهذا يدل على هذا الصانع الخالق المشرف عليها المؤلف لها، ثمّ يشير سقراط إلى مبدأ الحكمة في الخلق والقصد إلى وضع الملكات في هذا الخلق فالتقى سقراط بدليله العقلي مع غيره من العلماء.

عند ذلك يستمر النقاش بين سقراط واريستوديم الشخصية اليونانية بعد أن اقتنع بحجج سقراط وبأنّ هذا الكون والخلق لا يمكن أن يكون من عمل الصدفة فيتابع السائل متسائلاً بأنّه لَم يرى هذا الخالق، فيجيب سقراط **«أنت لا ترى روحك التي تتسلط على أعضاءك ولا ترى عقلك في رأسك فهل يعني هذا أن تصرفاتك هي صنع الصدفة وبدون إدراك»**[1] فهذا يثبت ما قلناه ويؤكده سقراط بأنّ هناك قوى طبيعية كثيرة تتحكّم بالإنسان والوجود ونحن لا نراها كالجاذبية والكهرباء ولا حتى نشعر بها ومع ذلك فلها دور كبير في حياة الإنسان واستمراره وتأثيرها كبير عليه وعدم رؤيتها لا ينفي وجودها بل قد أكدها العلماء فتأكيد وجود الخالق سبحانه هو أسهل على الإنسان لأنّه أمر بديهي عند كثير من الناس. فيصل سقراط في كلامه قائلاً **«ألا ترى أنّ أقدم التأسيسات الإنسانية وأحكمها والممالك القائمة والأمم العظيمة هي أكثرها**

(١) المصدر نفسه (الإسلام في عصر العلم).

تمسكاً بالدين واعتقاداً بالآلهة (يقصد الله) وأنّ أكثر العصور نوراً ولألأً هو أكثرها وأشدها تعلقاً بالتقوى والطاعة، إعلم أنّ روحك يا صاح كمالها السلطة التامة على جسمك تديره وتدبّره كما شاءت، كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون لها التصرف والإرادة النافذين فيه كله»[١]. فهنا يكشف سقراط حقيقة من الحقائق المبتني عليها الكون والخلق فيعترف ويقِر بأنَّه كما الروح تتحكَّم بالجسد دون أن نرأها فكذلك قدرة الله سبحانه تتحكّم بهذا الوجود وبالكون والإنسان وما فيه من جسد ونفس وعقل وتدبره بكل حكمة ولكن دون أن نشعر.

فلو يكون الإنسان منصفاً فينتبه في لحظات صفاء النفس ويُحكِّم عقله لإدرك وجود هذا الخالق العظيم وتأثيره عليه، فسترى فيما يأتي أنّ الله سبحانه فاعل محرِّك ولكن لا بالحركات حتى تسمع صوتها أو تشعر بها بل عن طريق التأثير كتأثير الروح في الجسد. بعدها ينتقل سقراط لإثبات صفات الله الكمالية وكيف أنّه سبحانه هو مصدر الفضيلة والصلاح للنفس الإنسانية فيرى أنّ أعظم الأمم هي التي التزمت بالتقوى والفضائل ونرى بأنّ مصدر هذه الفضائل هي الذات الإلهية المحيطة بالكون والإنسان، فسقراط الفيلسوف والمنطقي قد لاحظ بأنَّ هذه الفضائل والأخلاقيات مرتبطة بالحكمة الإلهية المحيطة فكلما كان هذا الإنسان أكثر طاعة لله كان وجود النفس الفاضلة الصالحة أقوى فيه، فسقراط استنتج أنّ عظمة الأمم هي بقوة مجتمعها الذي يؤمن بالله سبحانه ويخضع لله مصدر الحكمة والفضائل والصلاح

(١) المصدر: الإسلام في عصر العلم ص ١٦٧ لمحمد فريد.

للنفس وكلّما كان المجتمع صالحاً فاضلاً بصلاح أفراده كانت الأمة عظيمة وباقية فلا نستغرب فيما يأتي كيف أنّ دعوة أفلاطون تلميذ سقراط إلى المدينة الفاضلة مرتبط بإيمانه كأستاذه سقراط بالله سبحانه، وسنرى لاحقاً أنّ من أصحاب الفلسفات من أيقن بأنّ الخير في هذا العالم مرتبط بوجود قدرة خالقة هي مصدر الخير ومظهرة له، ومؤثرة على النفوس للبعث إليه والدفع نحوه فمن كان منهم مؤمناً بالله توصّل إلى الحقيقة وبأنّ هذه القدرة هي الله سبحانه. فسقراط أيقن بما عُرف عن فلسفته بأنّ حقيقة الله تُدرك عن طريق الفضيلة لأنّه هو مصدرها والداعي إليها والفضيلة بنظره هي العلم والعمل والفكر، فعن طريق العلم والفكر وصل سقراط إلى حقيقة وجود الخالق ومن خلال العلم والفكر تدرِك النفس الإنسانية ارتباطها بالخالق عندما تلاحظ من يبعث فيها هذه الفضيلة ويدفعها إليها، فكلّما كانت النفس الإنسانية نقية وفاضلة بالعلم والفكر كما يرى ذلك سقراط فلا بدّ أن تصل إلى حقيقة الخالق وتخضع له.

سقراط توصّل أيضاً إلى إحدى المسائل الأكثر شغلاً لإنسان وارتباطاً بالخالق والتي دعا إليها الأنبياء عليهم السلام وتكلموا عنها بكثرة وهي الحياة بعد الموت، فعن طريق العلم والفكر استنتج بأنّه ما دام هناك خير وشر فهل يمكن للإنسان أن يفعل الشر ويَظلِم إنساناً آخر يكون ضحية وفي النهاية يموت الإثنان دون أي حساب فهذا مخالف للعدالة والقيم والفضيلة وللعقل أيضاً، إذاً فلا بدّ للقدرة التي تتحكّم بهذا الكون والإنسان أن تتولى ذلك وبما أنّنا لا نرى هذا الحساب يجري في هذه الحياة فلا بدّ أن يكون بعد الموت، وهي الحقيقة فعلاً

التي دعا إليها الأنبياء عليهم السلام لأنّ من صفات الكمال التي يتصف بها الله سبحانه هي العدل والانتصار للقيم لأنّه هو أساسها والباعث إليها في النفوس لأنّ الخالق المربّي للنفس لا بدّ أن يربيها على صفاته التي هي فيه لتكون تجلياً له في هذه الأرض.

استخلص سقراط في النهاية بعد أن بحث في التاريخ بأنّ تلاقي الشعوب في كل زمان ومكان حول المفاهيم الإنسانية الفاضلة ليس تكرار لخطأ بل دليل على صحتها ودليل على وحدة النفس الإنسانية رغم اختلاف الزمان والمكان فهذا دليل على وحدة صانعها والمدبِّر لها في كل زمان ومكان على نفس النظام لأنّ الله سبحانه أراد للنفس الإنسانية الصلاح في كل زمان ومكان ونقش فيها الفضائل للوصول إلى حقيقة الوجود ومعرفته والخضوع له ولقوانينه العادلة، وهذا ما جاهر به سقراط في مجتمع وثني ودفع حياته ثمناً لذلك ولهذه المعتقدات وظل مؤمناً بمبادئه حين حكم عليه الحكام الوثنيون بالموت فقال لتلاميذه حين قُدِّم إليه السم «إنّي ذاهب حيث يوجهني الله إلى عالم سرمدي آخر فلا تحزنوا عليّ»[1]. أليس سقراط معروفاً بالحكمة والعقل الراجح؟ فلما لا نصدّقه حين أوصلنا إلى حقيقة الوجود ونؤمن بما آمن به ودفع حياته لذلك.

---

(١) المصدر: الإسلام في عصر العلم ص ٧ لمحمد فريد.

أفلاطون يصرّح «سمو النفس هو بالتشبه بالله»:

أفلاطون كمن سبقوه سقراط وفيثاغورس قد غاص في البحث في سر هذا الكون وسر وجود الإنسان وسر الخلق والغاية منه وأصل الوجود ومصدره فتوصّل أيضاً عن طريق العقل بأنّه لا يُتصوّر وجود هذا العالم بما فيه من آيات الخلق والتنظيم والحكمة مع عجز المادة عن أن تحلق نفسها بنفسها، بدون خالق خلقها ونظّمها ومشرف عليها يسيِّرها ويدبِّرها ومن البديهي أن يكون لكل مصنوع صانع صنعه فيقول أفلاطون **«الله خير بذاته وهو يختلف عن كل شيء في العالم، لا يوصف بلغة الكلام، وهو عقل وحياة، واحد كامل لا يتغيَّر، وقديم أزلي مفارق الزمان والمكان، وهو موجود بذاته، وصانع هذا العالم وقد وصف بالاكتفاء المطلق، فلا يحتاج إلى أي شيء آخر لكمال وجوده، وهو مدبِّر حكيم، ينظِّم أمور الخلق، ويلحظ كل شيء بعين عنايته وهو معشوق لذاته، وعندما يقترب الإنسان من معراجه الأخير يشاهد جمالاً عجيباً، هو غاية ما بذل (الإنسان) في بلوغه من جهد طويل، إنّه (الخالق) جمال أزلي، لا يعتريه كسوف، ولا فساد، ولا زيادة ولا نقصان ونحن لا نتصوّر هذا الجمال في مكان معيّن، أو زمان، ولا نتصوّر له هيئة وجه ذي عينين أو جسد له أعضاء»**[1].

أفلاطون بكلامه هذا أوضح بشكل دقيق صفات الله تعالى التي جعلت منه إلهً وبيّن حقائق عن الله أكدّها الأنبياء عليهم السلام فهو سبحانه لا يصيبه التغيّر فهو موجود منذ الأزل لا يتغيّر ولا يتبدّل في الأحوال لأنّ التبدّل

---

(١) المصدر: من كتاب جمهورية أفلاطون.

والتغيّر هو من صفات المادة والله سبحانه هو غير كل شيء في هذا الوجود، فلا يعرف التغيّر والعجز فلا يؤثر مرور الزمن على وجوده ولا يصيبه التعب في تدبيره للكون فلا يغفل أو يسهى أو ينام فهو ليس بحاجة لذلك كلّه، وهو لا يعرف النقصان مع مرور الزمن وهو مدبِّر هذا الوجود فلا يتركه ولو للحظة فهو يملأ الوجود فلا يخلو منه مكان ووجوده دائم لا يضعف في لحظة من اللحظات ولا يزيد وإلا لكان ناقصاً فاحتاج إلى الزيادة.

فأفلاطون يبيِّن إحدى الصفات التي جعلت وأعطت معنى الألوهية وهي أنّ الله سبحانه لا يحتاج إلى شيء ولا إلى أحد في وجوده فذاته كاملة وكمالها وبقاءها واستمرارها من نفسها فالله غنيّ عن كل أحد، وهو سبحانه لا يحتاج إلى أحد ليعينه في تدبير شؤون هذا الكون فكيف ذلك وقدرته هي فوق كل قدرة لا تضعف وليس فيها قصور وليس فيها عجز وليست محتاجة إلى عضد ليثبِّتها ويعينها، وهكذا يكون الإله إلهاً لأنه كامل بذاته غير محتاج لشيء وكل شيء بحاجة إليه يقوم بأمورهم وليس هناك شيء يماثله ولا وزير يستشيره ولا شريك معه ولا معين يعينه ولا معاند يستطيع معاندته فهو المسيطر على الكون ينظم أمور الخلق فهو سبب استمرار هذا الوجود فأصبح بذلك كما يقول أفلاطون معشوق العارفين به وغاية الجمال لكمال صفاته تتعلق النفس به والعقل بحب معرفته.

وراء خلق الإنسان غاية مثالية برأي أفلاطون:

أفلاطون وببصيرته الثاقبة لاحظ أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالشعور الوجداني أو ما نسميه بالتفاعل النفسي مع محيطه ولاحظ أنّ في هذه النفس مُراقب يسمّى صوت الضمير يراقب تصرفات الإنسان ويحثه على عمل الخير ويثيبه بالشعور بالرضا والسعادة عند فعله، وينهاه عن الشر ويشعره بالإثم والندم والحقارة عند إرتكابه. ولذلك فالإنسان دائماً يسعى إلى جهة الخير لتطلعه إلى الكمال المثالي، فهذا الشعور أوحى لأفلاطون بوجود غاية إنسانية مثالية وراء خلق الإنسان في هذه الدنيا وهو السعي إلى البلوغ بهذه النفس نحو الكمال، وبلوغ الكمال يكون بوضع مثال أعلى للنفس أو صورة مثالية لما تسعى إليه فكلما اقتربت إليه كانت بذلك سعادتها وكلما ابتعدت عنه كان بذلك شقاءها ودنوها إلى الإنحطاط وإلى مثال الرذيلة والشر، واكتشف أفلاطون أيضاً بأنّ الإنسان مركّب من النفس ومن الجسد، فأمّا الجسد فهو مركز الغرائز والشهوات وأمّا النفس فهي مركز حياة المثل التي يسعى إليها الإنسان. وخلال بحثه في حياة المثل والكمالات الإنسانية وارتباطها وعلاقاتها بسر وجود الإنسان **وبعد أن أقرّ فيما سبق بوجود خالق لهذا الإنسان فها هو يقول: «من الواضح والضروري أنّ كل ما يتولد يجب أن يكون له مسبّب يولده، ومن المعلوم أنّ الدنيا قد تولدت بعد أن لم تكن»[1]. ثمّ تابع «الله خلق الخلق لإظهار كماله الإلهي، ومن كان كاملاً كان منزهاً عن الأغراض والشهوات وهو منزّه عن**

(١) المصدر: الإسلام في عصر العلم الطبعة المصرية لمحمد فريد.

النقائص كلّها يودّ أن كل شيء يشبهه في كماله على قدر الإمكان» فهنا أفلاطون في بحثه عن أسرار النفس الإنسانية وسر خلق الإنسان يصل إلى العلاقة بالخالق سبحانه، فاعتبر بأنّ خالق النفس الذي وضع فيها المثل لا بدّ أن يكون هو المثال الأعلى لها ولِما تؤمن به من مثل عليا وذلك لأنّه مصدرها والباعث إليها وبالتالي فلا بد للنفس أن تتعلق بمثالها الأعلى وتسعى إليه وهو محقٌّ فيما يقول، فلو كان خالق الكون مركباً من غرائز وأهواء لرأينا تأثير ذلك في مسار الكون بينما حين ينظر المراقب نلاحظ بأنّ مسيِّر الكون هو كما سمّاه أفلاطون عقل منظّم خال من الأهواء، وإنّما انتظام الكون هو نتيجة هذه القاعدة.

إذاً إذا أرادت النفس أن تصل إلى الكمال فعليها أن تعود إلى خالقها إلى صانع المثل وواضعها فيها وتسعى إلى صفاته وكمالاته وهذا يكون بابتعاد النفس وترفعها عن الغرائز والشهوات فكان أفلاطون كالأنبياء عليهم السلام لأنّه آمن بالله الخالق وكان يدعو إلى الفضيلة كما أستاذه سقراط ولكن الأنبياء أضافوا بأنّ عبادة الله أيضاً هي رديف للفضيلة ولا تقلّ عنها للوصول إلى المثل العليا وإلى مصدرها. فأفلاطون يوضح ذلك فيقول: **«إنّ الإنسان نفس وبدن، وأنّ النفس أزلية خالدة، وأنّ الله خير محض، وإذا كانت النفس التي هبطت إلى هذا العالم قد نسيت عالمها القديم فإن من طبيعتها خلال اقترانها بالبدن أن تطلب المعرفة وإذا كان البدن وهو مكان الشهوات والغرائز والحاجات مركباً من عناصر مادية تصد النفس عن الكمال فإنّه من الواجب على النفس الباحثة عن الحقيقة أن تمزّق حجاب البدن وأن تنجو من عبوديته وأن تطهّر نفسها من كدورات المادة وبالتأمل فإنّ**

الكدورة لا تتفق مع نقاوة الحقيقة وأعلى درجات هذا التطهير هي التخلص لهذه النفس من البدن بانفصالها عنه»[١] وكأن أفلاطون يردِّد كلام الأنبياء عليهم السلام بانفصال النفس عن الجسد بالموت وذهابها إلى حياة أخرى هي الحياة الآخرة حيث تحاسب هناك فإن التزمت بالفضيلة كانت منعّمة وإستراحت من سجن البدن وإن اتبعت الشر كانت معذبة في تلك الحياة.

فهكذا أوصل العقل والتفكر أفلاطون في بحثه عن أسرار النفس وسر وجود الإنسان إلى أصل الصفات الكمالية وإلى العلاقة بينها وبين هذه النفس فهو يقول في كتابه جمهورية أفلاطون «إذا أراد الإنسان الوصول إلى السعادة فيجب أن يطوف إلى العالم الأعلى ويحن اشتياقاً إليه، وسبيل ذلك أن يعيش حياة روحية خالصة يمارس فيها الفضيلة والعلم وأن يزدري الأمور الزائلة ويحب الجمال المطلق (الله) والخير المطلق ويتشبه بالله»[٢]. فكلام أفلاطون يجب أن يكون دافعاً لأصحاب العقول والباحثين عن الحقيقة وعن سعادة الإنسان للوصول إلى هذه السعادة بالارتباط بمصدر الخير والقيم بالله سبحانه فيجد الإنسان السعادة في هذه الحياة وما بعد الموت وهو الفوز الأكبر، **فاسمع أفلاطون كيف أنّه وصل إلى هذه الغاية ببصيرته وإدراكه فيقول: «وبما أنّه لا يوجد في هذه الحياة عدل كامل لأننا نجد أكثر الأحيان الظالمين منعمّين متسلّطين والطيبين مظلومين تعساء، إذن لا بد من**

(١) المصدر: تاريخ الفلسفة ص ٣٤ للدكتور صليبا.
(٢) المصدر: كتاب جمهورية أفلاطون.

وجود حياة ثانية يعدل فيها الله بين عبيده فيقتص من الظالمين ويرد الحق إلى المظلومين ويثيب المطيعين الأتقياء جزاءاً لما فعلوا»[١].

فهكذا استخلص أفلاطون أنّه لا بدّ أن يكون هناك حساب للإنسان بعد الموت على أفعاله ليتحقق العدل المطلق، وقد أصاب في كلامه لأنّه بحساب الإنسان بعد الموت تُحَل أعقد مسألة تعاني منها البشرية وهو الوصول إلى العدل الحقيقي وانتصار العدالة في حياة الإنسان، ولا يحقق ذلك إلاّ قانون الله سبحانه لأنّه هو المشفق على خلقه والذي يريد لهم الخير والصلاح فتسخير مقدّرات الكون وتناسبه مع حياة الإنسان دليل على أنّ هذا الخالق العظيم ناسب الكون بما يصلح حياة الإنسان ولمصلحته وليوصله إلى السعادة وهذا هو العدل الحقيقي. أفلا يدعونا ذلك وما قاله أفلاطون إلى العودة إلى هذا الخالق اللطيف وإلى قوانينه التي فيها سعادة الإنسان؟.

أرسطو واضع أسس علم المنطق يعترف:

القول بوجود العالم بالعرض أو بالصدفة إنكار للحكمة في مخلوقات الصانع»

أرسطو هو أيضا فيلسوف يوناني وهو من الباحثين أيضاً عن حقيقة الخلق وحقيقة الوجود وهو من أصحاب العقول التي وضعت أسس علم المنطق الذي يوصل إلى حقيقة الأشياء بالتفكير السليم والطريق الصحيح ويمنع الإنسان من الخطأ. فأرسطو صاحب هذا العقل الفذ

(١) المصدر: من كتاب جمهورية أفلاطون.

كأستاذه أفلاطون بحث في سر وجود هذا الكون وفي أصل وجود الإنسان ككل مفكِّر يتحرك بالفطرة عند احتكاكه بهذا العالم المحيط به وعند ملاحظته لكل هذه المخلوقات، وهذا ما يجب أن يفعله كل إنسان لكي لا يكون كالأعمى لا يعلم من أي طريق جاء، فكيف يعرف إلى أي طريق يتجه؟ فأرسطو بحث عن الطريق التي جاء منها لكي يوصل هذه النفس إلى الطمأنينة والاستقرار بمعرفتها لسبب وجودها وما يوصلها إلى صالحها وخيرها فتعرف حينئذ كيف تتجه في هذه الحياة.

عند هذا البحث والملاحظة للكون والمخلوقات وبالبديهة العقلية التي تقول بأنّ لكل معلول علة لوجوده وبأنّ لكل حركة محرِّك ولكل فعل فاعل وبعد بحثه عن هذه العلة وهذا المحرِّك توصّل أرسطو إلى **وجود الله سبحانه ككل عقل سليم يقول باستحالة وجود هذا العالم بالعرض أو بالصدفة فاسمعه وهو يجيب حين سُئِل عن الله سبحانه فقال: «إنّ الله واجب الوجود، لا يعتريه تغيّر أو تأثّر من غيره وهو عظيم المرتبة جداً غير محتاج لغيره، ولا متغيّر بسبب من غيره، سواء كان التغيّر زمانياً أو ذاتياً، وكل شيء يوصف به يكون دون نفسه، وهو كائن يهب الحركة ولا يتحرّك هو، فهو أزلي أصل لغيره منزّه فعّال مؤثِّر»**[1].

فأرسطو وعن طريق تفكيره المنطقي وفكره المعتمد على القواعد الصحيحة في البحث أدرك أنّه لا بد أن تكون هناك قدرة هي أصل

(١) المصدر: المِلَل والنِحَل للشهرستاني ج ٢ ص ٣٧٢.

للوجود يكون الوجود صادر عنها وإلا فالوجود لا يأتي من لا شيء، وهذه القدرة التي هي الله سبحانه لا يمكن أن يصيبها التغير والتبدل لأنّ الذي يعطي الوجود ويخلق غيره لا بد أن يكون كاملاً ليس فيه نقص وإلاّ فكيف يخلق الناقص غيره ولكان الكون والوجود إبتُنيَ على النقص وعلى وجود الخطأ في ضمن المخلوقات وبالتالي لكان سير الكون والمخلوقات سيراً فيه الكثير من العثرات حتى أنّه يمكن أن يحل به الخراب ونحن لا نرى ذلك بل نلاحظ الانتظام والكمال في المخلوقات، إذاً فكيف يخلق الناقص الكمال فلا بدّ أنّ خالق الوجود كامل وخلقه يشهد له بذلك، ثمّ يتابع أرسطو استنتاجه لصفات الله تعالى وهي العلو فوق مستوى الخلق وإلاّ كيف يكون الإله إلهاً، ومن نتيجة هذا العلو أنّ الله سبحانه لا يتأثر بغيره فالإله يكون متفرداً بقدرته متوحداً في الهيمنة على مخلوقاته لا يحتاج إلى من يشير عليه لعدم النقص فيه والكمال في حكمته فهو يدبر أمور مخلوقاته عن علم مفصَّل بخلقها وبظواهرها وبواطنها فلا يخفى عليه شيء ليرشده أحد إليه في كل هذا الوجود، وهو سبحانه الكمال في الوجود فهو الأعلم والأقوى والضمانة للإستمرار لكل شيء والمسيطر على كل شيء فهو ليس بحاجة إلى ما عند الآخرين ولا لأحد ليضمن إستمراره وإستمرار خلقه ولا يطمح إلى صفات غيره فهو الكامل في الصفات فلذلك فهو لا يتأثر بغيره ولا يحتاج إلى غيره، ومن كمال الصفات كما ذكرنا أنّه سبحانه لا يصيبه التغيّر فالتغيّر والتبدل هو الانتقال إلى الزيادة أو النقصان وهذا الانتقال لذلك لا يكون إلاّ عن نقص واحتياج إلى ذلك والتبدّل لا يكون إلا للوصول إلى الأكمل والإله مع الحاجة إلى الزيادة والسعي

إلى الكمال لا يكون بهذه الصفات إلهاً، وملاحظتنا للكمال في خلقة المخلوقات والكون يدلّ على صفات الكمال في الخالق لا النقص، وانتظام الكون يدلّ على عدم التغيّر والتبدّل في المدبِّر فلا يؤثر عليه مرور الزمن ولا تغيّر أحوال الكون إذ هو الفاعل فلا يؤثر عليه فعله وهو المحرِّك للكون فلا يحرِّكه غيره فلا يعطيه أحد الحركة ولا يؤثِّر عليه شيء فوجوده من نفسه وإستمراره بنفسه.

إذاً ملاحظة أرسطو لصفات الإله جعلته يعرف حقيقته وبأنّه عظيم المرتبة جداً وذلك طبيعي من مفكِّر بحث في صفات الكمال التي تجتمع في وجود واحد فلا بدّ أن يكون هذا الوجود للإله عظيم جداً لا يتصوّره العقل إلا بما استطاع من قدرة فلذلك قال أرسطو فكل شيء يوصف به يكون دون نفسه فالكمال لله لا يدرك إلا بما نملكه من ألفاظ لا بحقيقته. فبذلك توصّل إلى حقيقة المدبِّر لهذا الكون وبأنّه سبحانه أزلي لأنّه أصل كل شيء، منزّه لأنه الكمال المطلق، فعّال مؤثِّر لأنّ حركة الكون تصدر عن فعله وتأثيره وتدبيره.

معرفة الخالق طريق التغيير في المجتمع عند أرسطو:

أرسطو كأساتذته أفلاطون وسقراط عرف بأنّ الإنسان يتألف من نفس تنقسم إلى نفس حيوانية ونفس ملائكية، نفس حيوانية تنمو بالشهوات فإذا جمحت كانت سبباً للفساد، ونفس ملائكية متعلقة بعالم الملكوت عالم الأرواح والملائكة والخلو من الشهوات فهي عندها تكون نفس معترفة بوجود الله سبحانه متأثرة به ساعية إليه لبلوغ العالم العلوي المثالي والتفلت من عالم المادة والشهوات. فأرسطو توصَّل

إلى أنّ التعلق بالله سبحانه والتأثر به والسعي إلى عالم المثل العلوي يبعد النفس الإنسانية عن الشهوات والأهواء الدنيوية وبالتالي يبعد هذه النفس عن أسباب الإنحطاط والسقوط ويرتفع بها إلى عالم القيم والصلاح فتكون بذلك طريقاً للتغيير في المجتمع والوصول بالنفس الإنسانية والإنسان إلى السعادة والخير والصلاح، فهكذا يكون أرسطو مع أساتذته بارسائهم لهذه القاعدة الفكرية القائمة على الإيمان بالخالق قد قاموا بحركة تغييرية في المجتمع اليوناني الذي كان مجتمعاً وثنياً ظالماً ونبذوا فكرة الآلَهَة اليونانية وواجهوا القائلين بها في مجتمعهم، وأوصلوا إلى هذا المجتمع عبر الأدلة العقلية حقيقة وجود الخالق.

فالمتتبع للحركة الفلسفية اليونانية يلاحظ بأنّ أرسطو مع أفلاطون وسقراط قد هيئوا المجتمع اليوناني لقبول دين السيد المسيح عليه السلام ووضعوا الأسس لتوجيه النفس الإنسانية إلى الأخلاق والفضيلة والخير واعترفوا بارتباطها بالله حيث قالوا بأنّه الخير المطلق ومصدره، والكمال المطلق وبه تبلغ النفس الإنسانية كمالها فكانوا في ذلك الزمن مرحلة وسط بين الوثنية والنبوة. فلماذا إذاً في زماننا هذا أصحاب العلم لا يعودون إلى هؤلاء الكبار في العلم والفلسفة ليخرج العقل الإنساني من دائرة المادة والشهوات التي أغرقت الإنسان في الحياة الغرائزية ليتعرف هذا العقل عبر هؤلاء الكبار على الخالق الذين اعتبروه طريقاً إلى الخير والفضيلة والارتفاع إلى عالم القيم والمثل لأنّنا بأحوج ما نكون في زماننا هذا لذلك لنعيد النفس الإنسانية إلى فطرتها النظيفة من الشوائب ونخرجها من قلقها الذي فرضته الحياة

المادية الرخيصة التي لا تهتم إلاّ بالحاجات الجسدية الحيوانية. ثمَّ يأتي الموت فيقضي على هذا الجسد وكأنّه لم يكن فلا تعود للحياة قيمة ولا يبلغ الإنسان حياة القيم التي خلقه الله سبحانه ليمارسها في هذا الوجود بل ما نراه هو إسفاف نحو الغرائز والشهوات مما يدفع بالمجتمع الإنساني إلى الإنحطاط والسير نحو الهاوية، فهل لنا إذاً في الأمم السابقة التي زالت والتي لم تؤمن بالله ولم تسِر على قوانينه عبرة فنعتبر ونعود إلى الخالق ومبادئه السامية وتوجيهاته على لسان رسله؟.





فلاسفة الغرب
يوافقون فلاسفة الشرق

فلاسفة الغرب يوافقون فلاسفة الشرق

إنّنا موجودون فلا بد لنا من قدرة أوجدتنا:

فلاسفة الغرب حذوا حذوى فلاسفة الشرق فاتبعوا الدليل العقلي والبرهان، ولأنّ مصدر خلق العقل واحد فلا بدّ أن يصل هذا العقل إلى خالقه وإلى نفس النتيجة في بحثه عن أصل الحياة وعن سر الوجود. فأخذ كبار أركان الفلسفة في الغرب يبنون مبادئهم على هذه الحقيقة التي هي بنظرهم لا بد منها للمسيرة الصحيحة للبشرية لارتباطها الشديد بحياة الإنسان والتي تحدّد شخصيته وقيمه.

ديكارت يتساءل:

«أنا موجود فمن أوجدني؟ منْ خلقني؟» فيصل إلى الحقيقة:

ديكارت الفيلسوف والرياضي الفرنسي الشهير يعتمد التدرج المنطقي في التفكير وهو صاحب المعادلات الرياضية المعقدّة والتي لا بدّ لأصحاب الاختصاصات أن يمروا عليها ويعلمون إرتباطها باسم ديكارت، فها هو يستعين بمنطق التحليل العقلي ويقول: **«أنا موجود فمنْ أوجدني منْ خلقني؟ إنّني لم أخلق نفسي فلا بدّ لي من خالق وهذا الخالق لا بدّ أن يكون واجب الوجود وغير مفتقر لمنْ يوجده أو يحفظ**

له وجوده ولا بدَّ أن يكون متصفاً بصفات الكمال وهذا الخالق هو الله خالق كل شيء»[١] فتلاحظ أنّ ديكارت في طريقة تفكيره قد إتفق مع الإلهيين ومع كل من اتبع نتيجة التفكير السليم بأنّه من الضرورة أن يكون هناك خالق أول ومصدر لكل مخلوق وهو ما سماه علماء الكلام وعلماء المنطق بواجب الوجود لأنّه إذا لم نصل إلى موجود يصدر عنه الوجود ويكون هو غير محتاج إلى منْ يوجده فلن نستطيع أنْ ندرك بداية الوجود، فلا بدّ من وجود مصدر للخلق يصدر عنه الوجود وهو ليس بحاجة لمنْ يوجده ويكون دائم الوجود وبه استمرار الوجود، وهذا الخالق لا بدّ أن تكون فيه صفات الكمال لأنّ ما نراه من كمال في الخلق لا يمكن أن يصدر إلا عن كامل لا بل عن مصدر الكمال وقمته لأنّ الكامل لا يصدر إلا عن أكمل منه ومصدراً له وينتهي ديكارت إلى القول بأنّ الخالق هو الله سبحانه فيصل إلى ما وصل إليه فلاسفة الشرق ويوافق حقيقة هذا الوجود ويسلك بالفكر الإنساني في الطريق الصحيح.

ديكارت يتابع ويوضح ارتباط النفس الإنسانية بالخالق وأهمية معرفة الخالق لصلاح هذه النفس واستقرارها وبناءها على أسس سليمة وبالتالي بناء الشخصية للإنسان التي هي أساس المجتمع فيقول: **«لمّا كان لديّ فكرة عن الكمال فلا بد من وجود كائن خارجي كامل قد خلقني ويقابل الفكرة الموجودة في نفسي، وفطرني جاهداً للوصول إليه، هذا الكائن إله هو»**[٢].

(١) المصدر: من كتاب ديكارت لأندريه كروسن.
(٢) المصدر: كتاب ديكارت لأندريه كروسن.

فديكارت عبّر عن سعي الروح إلى الخالق عن طريق سعي العقل إلى الكمال وسعي النفس إلى مصدر الكمال كما عبّر الروحانيون بسعي الروح إلى مصدر الخير والفضيلة والنتيجة واحدة وهي السعي إلى مصدر كل الفضائل والكمالات وهو الله سبحانه. فالروح هذا المخلوق الخفي، لها أسرار تتعلق بخلقها وبارتباطها بخالقها ولذا فلاسفة اليونان قد أحسنوا بالإهتمام بها حين عرفوا أهمية دورها وشاركوا الإلهيين حين فهموا بأنّ هذه الروح تسعى دائماً إلى عالم المثل والكمالات وعرفوا أنّه لا بدّ أن يكون هذا العالم المثالي عند خالقها لأنّه لا بدّ أن يكون هناك خالق خلق الأشياء وخلق المبادىء والمثل لهذه الأشياء ووضعها فيها، فديكارت شاركهم هذا الرأي ككل مفكّر منصف في بحثه عن حقيقة الوجود فقال عن ضرورة السعي إلى الخالق سبحانه بقوله: «**المعارف البديهية العقلية والوجدانية نور إلهي وهبه الله لنا، ولا بدّ أن نثق بأنّ هذه العقول التي فطرنا الله عليها، هي عقول صادقة وصالحة لإدراك الحق، لأنَّ الله صادق وحاشا أن يهبنا عقولاً مضلّلة خادعة؟**»[١].

إذاً ديكارت بمقالته هذه يعترف ضمناً بأنّ التفكير السليم والعقل الناظر إلى براهين خالقه لا بدّ أن يصل إلى حقيقة وجود هذا الخالق العظيم لأنّ الخالق وضعه في الإنسان ليقوم بهذا الدور، والإنسان إذا وصل إلى غير هذه الحقيقة فإنما يخالف الفطرة السليمة ويخدع نفسه وذلك لكثرة الأدلة على وجود هذا الخالق وشدة وضوحها في كثير من

---

(١) المصدر: كتاب ديكارت لأندريه كروسن.

الأحيان. فديكارت كما دلّنا على المعادلات الرياضية المعقدّة دلّنا على سر هذا الوجود وقد أحسن في الحالتين.

كانْت الفيلسوف الالماني:

بالعقل عَرَف الخالق وبالعقل يسير إلى الخير

كانْت هو أحد الفلاسفة الالمان المشهورين والذي كانت له مساهمات لا يجهلها المطّلع على الفلسفات الحديثة، فهو قد اعتمد أيضاً الدليل العقلي كما ديكارت عندما بحث عن سر هذا الوجود، ولأنّ القواعد العقلية السليمة تؤدي دائماً إلى نفس النتيجة ولأنّ سر الوجود هو واحد وهو الله سبحانه فلا بدّ لكل باحث متتبّع أن يصل إلى هذا السر وذلك لسبب أنّ الكون قائم على هذه الحقيقة ولكن الإنسان إمّا لغفلته وإمّا لمفاهيم خاطئة في نفوس مريضة تعمدت وضع غشاوة على نفس الإنسان وعقله لتحرف هذا الإنسان عن فطرته السليمة وتضع له مبادىء غير صحيحة لتحقق أهدافها المنحرفة. وحتى تحقّق هذه الأهداف تعمد إلى طمس حقيقة الوجود وإخفائها وهكذا نرى التيارات المعادية للدين تلجأ إلى ذلك، لأنّه بزوال هذه الغشاوة عن قلب الإنسان وعقله يعود إلى فطرته ليرى حقيقة الخالق التي هي حقيقة الخلق. فكانْت اتّبع طريق الدليل العقلي الذي لم تغطّه أوساخ العصر الحديث فهو يقول: «**هذا العالم حادث، فلا بدّ له من مُحدث أوجده، مُحدث واجب الوجود بذاته بمعنى أنه لا حاجة له لموجد أوجده**»[1]

(١) المصدر: دراسات مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة علي سليم بدر الدين.

فكما بيّنا أنّه لا بدّ لهذا الوجود من خالق خلقه وهو بنفسه ليس بحاجة لمن يخلقه ووجوده صادر عن ذاته وهو أصل كل وجود، وهذا ما توصّل إليه كانْت وهو تعبير فطري لكل عقل سليم.

ثمّ أنّه أيقن بأنّ هذا العقل المخلوق جعله الخالق معياراً يحث على عمل الخير وينهى عن الشر وهي احدى أهم المبادىء التي يدعو إليها الخالق سبحانه والتي تسعى إليها البشرية لحل مشاكلها فأسماه العقل العملي وقال: «إنّ هذا العقل العملي هو قانون أخلاقي فُطرت عليه نفوسنا يأمرنا بالتضحية في سبيل الغير وينهانا عن الشر والإساءة إلى الناس»(١). فإذا كان العقل يدعو إلى ذلك وفي ذلك حل مشاكل البشرية أليس لأنّ خالقه هو الذي يدعو إلى هذه المبادىء وقد خلقه ليدركها ويسعى إليها، فمنْ أولى أن نتّبع العقل أم خالقه أصل المبادىء والقيم؟. فلا بدّ من العودة إلى هذا الخالق سبحانه فنحن أحوج ما نكون إلى مبادئه لحل مشاكل هذه البشرية.

فولتير يصرِّح: «إنّ الموجودات برمتها تنادي بأنّ لها بارئاً»:

فولتير هذا الأديب والفيلسوف المشهور الذي عرف اسمه المثقفون على مقاعد الدراسة وغيرها وله كتب متداولة بين أيديهم نَظَرَ إلى هذا الكون بنظر الفيلسوف المتسائل عن سر هذه المخلوقات المتنوعة والعجيبة، وكعادة الأدباء والفلاسفة الذين تتخطى أحاسيسهم وأفكارهم الحواجز لتصل إلى عمق الأشياء لتتعرَّف إلى حقيقتها وما تخبىء من أسرار **فقد استنطق هذه المخلوقات وهذا الوجود ليقول:**

(١) المصدر: دراسات مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة علي سليم بدر الدين.

«إنّ الموجودات برمَّتها تنادي برفيع صوتها أنّ لها بارئاً قد برأها وصانعاً اتقن صنعها»[١]. ففولتير قد أيقن بالبديهة التي عند النفس والعقل بأنّ كل مخلوق موجود لو فقط رأى نفسه وما لديه من عجائب الصنعة وملكات موضوعة فيه وكيفية تناسقه وتكامله مع ما يحيط به من موجودات أخرى وحضور ما يحتاج إليه لاستمراره من شمس وهواء ونهار دون أن يكون له تدبير في ذلك وما فيه من أجزاء واعضاء يتعامل بها ما يحيطه، لصاح هذا المخلوق من تلقاء نفسه بأنّني أشهد بأنّ لي صانع صنعني وصنع ما يحيط بي وإلاّ لما كان صنعي كما أنا عليه، واستمراري هو دليل على أنّ هنالك من يدبِّر بقاء وجودي. فمنْ أدنى علامات الشكر لهذا الخالق المدبِّر هو التعرف عليه لأنّه كما هو سبب بقاءنا فتشريعاته هي الطريق إلى سعادتنا، فمعرفته سبحانه ومعرفة تشريعاته هي الطريق إلى سعادة الإنسان والبشرية.

الفيلسوف جان لاك «العقل هو طريق لمعرفة الله»:

جان لاك فيلسوف فرنسي مشهور أيضاً اتّبع طريق التحليل العقلي المنطقي السليم أيضاً وأيضاً واستعمل هذه النعمة التي ميّزت الإنسان عن كل الموجودات حيث أنّ الخالق سبحانه قد وضعها في الإنسان لمعرفة الحقائق والتعرّف على الأشياء وتمييز الصحيح من غيره وجعله ميزان يحاسَب عليه الإنسان ويحتج به عليه لأنّه قادر على الوصول إلى حقيقة وأصل الوجود ولأنّ الصانع أراد بصنعته أن تدلّ عليه وعلى

(١) المصدر: من كتاب دراسات مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة الإسلامية علي سليم بدر الدين.

عظيم قدرته وصفاته. فجان لاك كان من الذين أدركوا هذه الحقيقة وقد أوصلها إلى الآخرين حينما قال[1]: «إنّ العقل هو الذي يرشدنا إلى وجود الخالق، ذلك لأنّنا نوقن بوجودنا ونوقن بأنّ وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً، فنرى أنّ العقل يحكم أنْ ليس للعدم أن يوجد شيئاً، إذن نجزم أنّ ذاتاً أخرى قد أوجدتنا وكوَّنتنا وهذه الذات هي ذات الباريء كانت موجودة بصورة دائمة، أي أنّ الخالق أزلي سرمدي، وبما أنّنا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وإمكانيات فهي منه، إذن يجب أن يكون الموجد في كمال القدرة».

جان لاك انطلق من حقائق شاركه فيها غيره من الفلاسفة وأكّد بذلك بأنّه لا بدّ للباحث المنطقي أن يصل إلى حقيقة الخالق، فبدأ بملاحظة أنّنا موجودون ولم نكن قبلاً وبما أنّنا لم نُوجد أنفسنا والعدم لا يمكن أن يوجد شيئاً إذن فنجزم أنّ هناك ذاتاً أخرى قد أوجدتنا وهي ليست بحاجة لأحد لأن يوجدها فهي ذاتاً موجودة بصورة دائمة أزلية سرمدية. فلو لاحظت هذا التدرّج في التجليل العقلي لانتبهت أنّ عدداً من الفلاسفة والعلماء اتبعوا نفس الدليل وهذا إن دلّ على شيء في القواعد العلمية فهو أنّ الإتفاق على رأي واحد وتكرره على لسان أهل الفكر هو دليل على صحته وخاصة أنّه يعتمد على ملاحظة الظواهر الطبيعية وخصائص هذا الوجود فمن المستبعد أن يكون الرأي الفردي هو السبب لهذه الملاحظة، هذا إذا لم نقل بأنَّ هذه الحقيقة هي بديهية

(١) المصدر: من كتاب دراسات مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة الإسلامية علي سليم بدر الدين.

لكل باحث ولكل عقل مفكِّر فلا بدّ أن يلاحظها فلذلك يتابع جان لاك فيبيّن أنّه بما أنّنا مخلوقون من قبل هذه الذات الأزلية السرمدية ولا يمكن للإنسان أن يخترع نفسه بنفسه فلا بدّ أنّ كل ما لدينا من قابليات وإمكانيات فهي من هذا الخالق، فهنا يقترب جان لاك من حقيقة الخالق بأنّه أصل كل الكمالات والصفات الكمالية في الإنسان.

إذن جاك لاك يوضح بشكل ضمني بأنّ الإنسان إذا أراد أن يرتقي في الصفات الكمالية فلا بد له من العودة إلى الخالق إلى أصل هذه الكمالات وإلى المثال الأعلى، فإذاً المجتمع المثالي مجتمع القيم والصلاح لا بدّ أن يرتكز على مبدأ معرفة الخالق سبحانه لأنّنا بملاحظة نظام الكون المبني لصالح الإنسان وخيره فلا بدّ أن يكون نظام المجتمع وصلاحه وخيره هو في تشريعات هذا الخالق وقوانينه لأنّها لا شك ستكون تجلياً لكمالات الخالق ومثله العليا، فإذا كان هذا الخالق قد خلق هذا الوجود لصالح الإنسان ولمصلحته فهل من المعقول أن يبخل عليه بنظام للمجتمع لمصلحته، وإذا كان نظام الكون قد خُلق ليحقق احتياجات الإنسان فهل من المعقول أن يهمل هذا الخالق سبحانه حاجة الإنسان إلى نظام اجتماعي يلبِّي مصالح الإنسان لبناء المجتمع الصالح. فإذا كان الخالق قد خلق الإنسان على صفات الكمال وهو الكمال المطلق فلا بدّ أن يكون بناء الخالق للفرد الإنسان والمجتمع على هذا الأساس ولا بدّ أن تكون تشريعاته متصفة بذلك وهذا ما رأيناه في عهود الأنبياء عليهم السلام من قيم ومثل وعدالة وهو ما نحن بحاجة له في زماننا هذا وفي كل زمان.

باسكال الرياضي المشهور

«لا بدّ من دائم لا نهائي يعتمد عليه وجودي»

باسكال الرياضي المشهور هو صاحب المعادلات الرياضية التي نعتمد عليها والتي هي أساس في الرياضيات الحديثة والتي يحتاج إليها كل متخصص في العلوم الحديثة، فهذا المفكِّر الرياضي الذي طوَّر الرياضيات الحديثة ستجده هو نفسه الذي تكلم عن الربط المعقَّد للقواعد الرياضية يقول بشكل بسيط معتمداً على بداهة فكرة وجود الله سبحانه، وذلك للتأكيد على فطرية التفكير السليم الذي لم تمنعه الأفكار المضلّة عن الوصول إلى الخالق سبحانه والذي لم تغطي على بصيرته المبادىء المشوشة التي ظهرت في الزمن الحديث وفي الأزمنة السابقة. فباسكال يقول بشكل واضح[1] **لا بدّ من واجب الوجود ولا بدّ من دائم لا نهائي يعتمد عليه وجودي، وهو الله الذي تدركه إدراكاً أولياً، بدون أن يتورط في جدال البراهين العقلية، ولكن على الذين لم يقدّر لهم هذا الإيمان القلبي، أن يسعوا للوصول إليه بعقولهم»**.

فباسكال في البداية ينطلق من ملاحظة استمرارية هذا الكون بشكل دائم وبشكل منظّم، فهذه الاستمرارية وهذه الدقة والتنظيم أن تكون من تلقاء نفسها وبلا مسيِّر ومدبِّر هو أمر غير صحيح ببديهة العقل، فالتسيير الذاتي لا يصح بلا واضع لقانون السير هذا وبلا مراقب لصحة المسير، وثمّ أنَّ استمرار وجودنا نفسه هو دليل على وجود وعلى ضرورة وجود أصل مستمر لهذه الاستمرارية وباسكال انطلق من هذه

---

(١) المصدر: من كتاب قصة الإيمان ص ١٣١ - ١٣٢.

البديهة موضحاً أنّه لا ضرورة حتى للبراهين العقلية ولا للجدل الفكري لكل إنسان على فطرته السليمة وفكره التقي، والعلم نفسه يعترف بالبديهيات التي لا تحتاج إلى تفكّر ويبني عليها نظرياته كمثل الوجود أنّه موجود والواحد هو قبل الإثنين فأيضاً استمرار الوجود وأنّ للوجود موجد هي من هذه البديهيات التي اعترف بها كثير من العلماء والمفكّرين والفلاسفة ولكن حتى نلاحظها يجب أولاً أن نزيل من أمام عقولنا ونفوسنا هذه النظريات الفاسدة والمبادىء المنحرفة والغشاوة المصطنعة التي نشأت في العصر الحديث أمام أعيننا عندها نرى هذه الحقيقة جلية واضحة.

يتابع باسكال تدرّجه فيقول فمنْ لم تُقدّر له هذه الفطرة السليمة والذي ينطلق من الشك في ذلك فعندها فالعقل والبرهان هو طريق للوصول إلى هذه الحقيقة، ثمّ يتوجّه إلى عامة الناس فلا يدع لهم مجالاً للإعتذار عن الوصول إلى الحقيقة ويعتبر أنّ العقل هو حجة على الباحث والإنسان فيصل إلى حد أنّه مَنْ لم يصل إلى هذه الحقيقة فهو ليس بعاقل فيقول: **«هناك صنفان من الناس فقط يجوز أن نسمّيهم عقلاء، وهم الذين يخدمون الله جاهدين لأنّهم يعرفونه والذين يجدّون في البحث عنه لأنّهم لا يعرفونه»**(١). فكأنّ باسكال يقول للآخرين ما نفع العقل إذا لم يرى الحقيقة فكيف يكون الإنسان مخلوقاً عاقلاً إذا أنكر وجود خالقه. فهل يكون كلام باسكال الذي بنينا الرياضيات الحديثة على قوانينه الرياضية دافعاً لكل عاقل مفكّر لأن يراجع نفسه فيهتدي إلى الخالق ويبني حياته على هذا الأساس.

---

(١) المصدر: كتاب قصة الإيمان ص ١٣١ - ١٣٢.

لايبنز الفيلسوف الفرنسي

«القول بأن العالَم اوجد نفسه يوجب تناقضاً عقلياً»

لايبنز هو أيضاً من الأشخاص الذين تعتبرهم الناس أنّهم قمة الفكر البشري فهو خلال تفكيره يعتبر بأنّ هناك قواعد عقلية لا يمكن للإنسان أن يخرج عنها أو أن يسير خلافها لأنّ حياة الفرد والمجتمع مبنية على أسس توافق قوانين العقل مع هذه الحياة وهذا يشكّل ضمانة وأساس لسير الفرد والمجتمع وإلا لدبّت الفوضى في حياة الإنسان والمجتمع.

فلايبنز لهذا يعتبر بأنّ القول بأنّ العالم أوجد نفسه بنفسه هو أحد **الأقوال التي تنافي هذه القواعد والتي لا يمكن أن يقبلها عاقل فكيف بناء فكر ومجتمع على أساسها فهو يقول: «هذا العالم واقع مُشاهَد موجود وليس هو الذي أوجد نفسه لأنّ القول بأنّه أوجد نفسه يوجب تناقضاً عقلياً ولا بدّ له من علة كافية لوجوده»**[1] فلايبنز بقوله يؤكّد بأنّ العقل إذا لم يبحث عن علة وجود هذا العالم والذي اعترف بضرورة وجودها فسوف يقع في تناقض لأنّه أن يكون أوجد نفسه بنفسه غير مقبول فبالضرورة سوف يضم صوته إلى صوت الفلاسفة الذين قالوا بلا بدّية وجود علة لهذا الكون وبضرورة البحث عن هذه العلة. فلا بدّ أن نصل كما وصل كثير منهم إلى وجود الله تعالى لأنّهم ارتفعوا بأرواحهم إلى أعلى درجات الصفاء والتفكر فوصلوا وعرفوا حقيقة الله وعرفوا بأنّ الأسرار في الإنسان والكون لا بدّ أن ترجع إلى من وضع فيهم هذه الأسرار فآمنوا بالخالق واعترفوا به. إذاً فهل نتّبع قوانين العقل السليم

---

(١) المصدر: كتاب قصة الإيمان ص ١٣١.

كما فعل لايبنز فنرتبط بالخالق ونكون صادقين في وجودنا فلا يبقى الإنسان يعيش هذا التناقض في فكره فيصل إلى طمأنينة النفس وصفاء الروح.

آنشتاين العالِم يقول:

«يمرّ أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء»

آنشتاين هذا العالم الذي غيّر مسار العالم باكتشافاته وصاحب العقل المليء نبوغاً وذكاءاً والفكر العلمي الواسع والذي اعترف له كل عقل في الزمن الحديث برؤيته الدقيقة لأصغر مكوِّنات هذا الوجود والذي لا يشك أحد في إنطلاق كلامه من حقائق لاحظها في هذا الوجود، فهو يعترف بشكل صريح فيقول: **«يمرّ أمام عيني ربِّي الذي خلق كلّه شيء إنّني لا أراه ببصري، ولكن نفسي تراه حتى تشع عليها آثار عظمته وجلاله، وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال»**[(١)]. فآنشتاين بعدما عرف واكتشف كل هذه الأسرار لأصغر أجزاء هذا الوجود وبعدما عرف الكثير الكثير من أسرار وقوانين هذا الكون، فهو قد رأى من خلالها ومن عظيم صنعتها ربَّه وأوضح حقيقة بأنّ الله وإن كان لا يُرى بالأبصار ولكن كل شيء في هذا الكون يدلُ عليه فرأى الله سبحانه من خلال العلم وحافظ على فطرة النفس التي في داخله وهو المثال الذي نحن بحاجة له في هذا الزمن زمن العلم والمادة ليوجِّه المجتمع للارتباط بالخالق والسير على قوانينه لأنّه هو الذي خلق الإنسان والكون بهذه الحكمة وهذه الصفات والتي لا يتمنّى الإنسان

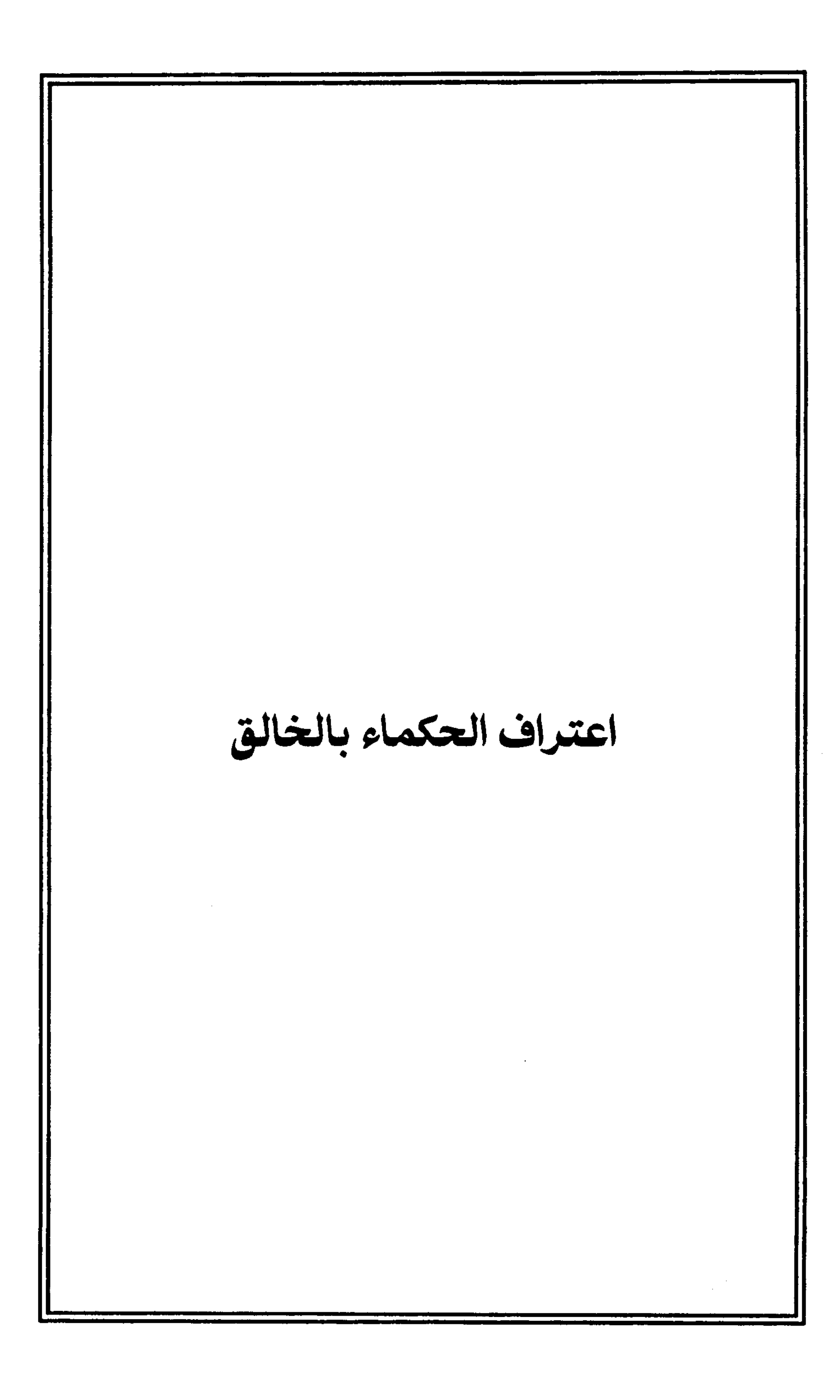
(١) المصدر: من كتاب عقائد الإمامية للسيد المجتهد إبراهيم الموسوي الزنجاني.

إلا أن يكون عليها.

فمن الطبيعي أن يكون القانون الذي أرسله الله مع الأنبياء عليهم السلام هو ما يتفق مع القابليات والصفات التي وضعها في النفس الإنسانية، والخروج عن هذا القانون هو خروج عن حكمة الخالق في المخلوق وهو ما يسبِّب شقاء هذه النفس ويلحق الضرر بها، وهذا ما نلاحظه في المجتمعات الإنسانية الحديثة التي زادت مشاكل هذه النفس تعقيداً وأدَّت إلى انحدارها. أفلا يدفعنا هذا إلى السير وفق قانون الخالق سبحانه وقيم أنبيائه للوصول إلى سعادة البشرية، فهل هناك من هو أدرى بتوجيه النفس الإنسانية من صانع هذه النفس؟ وهل هناك أحقُّ بذلك من الذي أعطاها الحياة؟ فنحن أحوج ما نكون لذلك في هذا الزمن زمن المادة والعلم والقوانين الوضعية وهو العودة إلى الخالق والقيم والمبادىء للأنبياء لتعود الروح إلى صفائها والنفس إلى طمأنينتها والإنسان إلى سعادته. فهل كلام الفلاسفة والعلماء وشهاداتهم حافزاً إلى ذلك؟.







اعتراف الحكماء بالخالق



اعتراف الحكماء بالخالق

نشأت في آسيا مذاهب روحية كانت تعني بالروح منطلقة من مبدأ تأثير الروح في حياة الإنسان وأهميتها وعلاقتها ببناء الإنسان ومبادئه، وبالتالي في بناء المجتمع وأسسه وبناء الحضارات الإنسانية وإن كانت لم تتّبع هذه المذاهب طريق الفلسفات لإثبات وجود الروح بالدليل والبرهان. وقد قادت هذه المذاهب وأسستها شخصيات انطلقت من حقيقة أنّ في هذه الروح قوة وقدرة ومواهب، وسعت إلى تنمية هذه الروح الإنسانية نحو الخير والصلاح وهذا إذا دلّ على شيء فإنّما يدل على ما استنتجه الفيلسوف سقراط بأنّ إتفاق الأمم والحضارات على هذه القدرة في الروح وسعيها الدائم إلى الرقي نحو القيم والمثل هو لأنّ هناك قوة وضعت فيها هذه الصفات على إختلاف الألسنة والألوان والأمكنة، فمصدر هذه الصفات واحد وواضع هذه القدرات فيها واحد إذاً فخالقها وصانعها لا بدّ أن يكون واحد صنعها على نفس الصفات وعلى النقاء والصفاء ولكن الإنسان هو الذي يفسدها بمبادئه الفاسدة وانحرافه عن القيم.

انطلاقاً من ذلك سعت هذه المذاهب إلى طرق لتنقية هذه النفس

وهذه الروح للوصول بها إلى سعادتها والسعي إلى كمالها ورقيِّها، فكان لا بدّ لهذه المذاهب باتباعها طريق تغليب الحياة الروحية على الحياة الجسدية لبلوغ هذه الأهداف أن تلاحظ علاقة هذه الروح بالقدرة التي وضعت فيها ملكاتها، وذلك بفطرتها وبارتفاعها إلى درجة عالية من الصفاء والنقاء. فكما العقل يدرك وجود هذه القدرة بالتفكّر كذلك الروح تدرك وجودها بشعورها المرهف بعد تفلتها من حياة المادة وانكشاف الحقائق أمامها، وإذا كانت هذه المذاهب قد اتبعت طريق الحكمة كأساس لها فكان لا بدّ لها أن تصل إلى الحكيم المؤثر في هذا الكون وإذا كانت تبحث عمّا يوصل الروح إلى طريق الخير فكان لا بدّ لها من الوصول إلى مصدر الخير في هذا الكون.

زرادشت الحكيم في فارس يخاطب الله قائلًا:

«منْ ثبّت الأرض في أدنى وامسك السماء أن تقع؟
منْ أيها الحكيم خلق روح الخير؟»

زرادشت هو أحد الحكماء وقد ظهر في بلاد فارس وهو كأفلاطون وسقراط وأرسطو في المجتمع اليوناني توصّل إلى حقيقة هذا الوجود وإلى وجود قدرة عظيمة بيدها التأثير على الروح التي تفلتت من المادة وارتفعت إلى عالم المثل عالم السماوات عالم ما وراء المنظور لتبحث عن حقيقتها ومصدر وجودها واستمرارها ومن أعطاها هذه الملكات وهذه القدرة ومنْ أثّر فيها وجعلها تسير في طريق الخير وتشعر بسعادتها وتكتسب قيمها التي ترتفع بها إلى عالم مثالي. فعن طريق سمو الروح وملاحظتها لهذا الوجود انكشف عالم ما وراء المادة

وأيقن زرادشت بوجود إله واحد خالق مدبِّر للكون مؤثِّر في الروح هو إله النور والخير والحق والعدل والخلود والسلطان، كما أنّه بعد رؤيته للشر والظلم الذي يعمُ الأرض وافتقاد العلاقة بين البشر للعدالة أيقن أيضاً بأنّ هذا خلل كبير في حياة البشر ولا يمكن لمن خلق الإنسان أن يرضى بأنْ تكون حياة الإنسان حياة معذبة وحياة قهر وخضوع لتسلط الأقوياء والظالمين ممَّا يكون مدمراً للحياة حينها وحاشى للحكيم أن يخلق الحياة على هذا الشكل وبلا هدف فلا بد أن يكون هناك هدف صحيح وسليم لهذه الحياة، فكيف يحيا الإنسان معذباً ثمّ يموت على ذلك فما معنى ذلك وكيف تكون الحياة هكذا بلا قيمة. إذاً لا بدّ من ضرورة وجود حساب بعد الموت ومن يتولى ذلك ووجود حياة بعد لموت تسعد فيها الروح التي كانت في شقاء وتقتص من الأرواح الشقية فتفرض عليها العذاب وبذلك تتحقّق العدالة المفقودة في حياتنا، إذاً فلا بدّ من قدرة مستمرة بعد حياة الإنسان دائمة تتولى ذلك وهي التي لها السلطلة على الحياة والموت.

فكم نحن في زماننا هذا بحاجة للعودة إلى صفاء الروح وإعطاء القيم والفضائل قيمتها وجعلها مؤثرة في حياة الإنسان والمجتمع لرفع الظلم الاجتماعي وتسلط الأقوياء وإعطاء الضعفاء حقهم في هذه الحياة وجعل قيمة لهذه الحياة ومعنى وإيجاد هدف سليم للإنسان، ولكن كيف الوصول إلى ذلك؟ وما السبيل إليه. إذاً فاسمع زرادشت وما يقول:

صلاة زرادشت:

«اعتراف باله واحد خالق السماوات والأرض»

آمن زرادشت بأنّ الخير في هذه الروح لا بدّ له من مصدر، وهذا الإبداع في الكون لا بدّ له من مبدع، وهذه الحكمة في المخلوقات لا بدّ لها من خالق حكيم فأوصل ذلك زرادشت إلى الاعتراف بوجود الإله الواحد الخالق للسموات والأرض. فاسمعه وهو يخاطب الإله الخالق فيقول: «منْ رسم للشمس والكواكب طريقها؟ إنْ لم يكن بك فبمنْ يكمل القمر وينقص؟ منْ ثبّت الأرض في أدنى وأمسك السماء أن تقع؟ منْ أيها الحكيم خلق روح الخير؟ أيّ فنّان أبدع النور والظلمات؟ منْ خلق الصباح والظهر والمساء ليعيِّن للبِّيب واجبه؟ من ذا الذي حفِظ المياه والنباتات من ذا الذي سخَّر الرياح والسحب. . . ؟»(١).

فزرادشت بروحه وفطرته التي ارتفعت إلى العوالم العليا لاحظ عظمة هذا الكون وأدرك أنّ هناك عظيم وراء هذا الخلق العظيم فمنْ الذي جعل المسار للشمس والقمر والكواكب وجعل الليل والنهار أيمكن أن يكون كل ذلك يسير بلا مخترع له وبهذه الصورة الفريدة التي طالما تغنّى المعجبون بوصفها وأعظموا مركّبها دون أن تكون لهم أية خلفية لا فكرية ولا فلسفية، ثمّ فكّر عندما رأى السماء في الأعلى والأرض في أدنى أنّه هل من الممكن أن تقف السماء بلا قدرة جبارة تمسكها، وهل يسير هذا السحاب ويصفقه الهواء بلا فاعل قادر، ومنْ

---

(١) قصة الحضارة لديورانت ج ٢ مجلد ١ ص ٤٢٨.

الذي خلق الليل والنهار ونظّمه ليكون عاملاً على تنظيم حياة الإنسان وتنظيم عمل المجتمع ليريح الإنسان في الليل بعد عناء القيام بواجبه في النهار ثمّ منْ الذي يحفظ هذا الكون.

فمن الطبيعي أنّ الروح التي خرجت من عالم المادة الضيق إلى العالم العلوي الفسيح أن تدرك باحساسها وشفافيتها وجود هذه القدرة الفاعلة لكل ذلك وأنّه هو الإله الخالق لكل ذلك المنظور أمام أعيننا ولا بدّ أن يكون عظيماً ومبدعاً بشكل يليق بابداع وعظمة هذا الكون. وإعجاب هذه الروح وهؤلاء الباحثين بروائع هذا الوجود لو سألتهم عن ذلك لرأيت أنّه واقعاً يخفي وراءه اعجابهم بمُنشيء هذه الروائع ولمّا أدركوا عظمته وقدرته خضعت أرواحهم له وعملوا كل ما يُظهر هذا الخضوع لقدسيته، فلذا نرى احترام الإنسان المؤمن بالخالق للمقدسات ولكل ما يرتبط بالخالق احتراماً يفوق التصوُر وذلك لعظمة هذا الخالق في نفسه وهكذا يتجه هذا الإنسان إلى طاعة خالقه ويتجه المجتمع نحو صلاحه لأنّ هذا الخالق يأمر بالخير والعمل الصالح. فإذا كان هذا الخالق كريماً في خلقه قد أعطى الإنسان كل هذه النعم بلا أن يسأله ذلك فهو بالنسبة للروح مصدر الخير لها والفضائل والمثُل، فإذا كان هطول المطر للإنسان هو مصدر خير واستمرارية لحياته فكيف بالذي خلق الماء له وهكذا كان انجذاب الروح إلى الخالق تعظيماً لفضائله واعترافاً له بفضله وبذلك نلاحظ بأنّ المذاهب الروحية التي نشأت ومن بينها الزردشتية ربطت إرادة الخير والفضيلة والصلاح في الإنسان بوجود الإله الخالق المصدر للخير ودعت إلى الإرتباط بهذا الخالق وإطاعته ومخالفة قوى الشر ومحاربتها ودعت

إلى العمل الصالح والحب والسلام ومساعدة الآخرين والعلو بهذه الروح إلى مصدر الخير إلى الإله الخالق الذي يبعث فيها هذا الميل، وجعلت فكرة الإرتباط بالإله طريقاً لإصلاح المجتمع. فاتفقت المذاهب الروحية للحكماء مع المذاهب الفلسفية للفلاسفة في ذلك وأقرّهم على ذلك العلماء معتمدين على ما اكتشفوه من أسرار هذا الكون وبأنّ هذه الأسرار للمخلوقات هي من خالق منعم على الإنسان، فهل يمكن أن يكون هؤلاء الحكماء والفلاسفة والعلماء اتفقوا على نفس الخطأ؟. فطبعاً لا يمكن أن تُبنى مذاهب كل هؤلاء على فرَضية خيالية، بل هي حقيقة الكون وصلوا إليها كلّ بطريقته فالجسد والروح والعقل يدرك وجود الله سبحانه وكلٌّ بحسب إدراكاته.

بعد هذا يحدثنا التاريخ بأنّ الملوك الذين اعتنقوا مذهب زرادشت الروحي في فارس اتّسمت فتوحاتهم للبلاد الأخرى بالتسامح والإنسانية مع الشعوب في هذه البلاد وباللين والمعاملة الحسنة واعترافهم بمبادىء الحق والخير، بينما يتحدث نفس التاريخ عن الأشوريين جيرانهم في العراق بأنهم كانوا يتفاخرون بهدم القرى وقتل الأسرى وممارسة أبشع أنواع التعذيب والظلم بحقّ الناس. أفلا يؤكّد ذلك أنّ اتّباع قانون الله والارتباط به هو السبيل للوصول إلى الخير والعدل وأنّ الخير والعدل والصلاح مرتبط بالإيمان بالخالق سبحانه وأنّه سبحانه أقرب الطرق الموصلة إليه؟. ثمَّ التاريخ يتحدث أيضاً بأنّ شعب فارس الذي اعتنق هذا المذهب لزرداشت اتسمت شخصيته بالفضيلة والأخلاق والتسامح، أفلا يدل هذا أيضاً بأنّ صلاح النفس الإنسانية يكون عبر الإرتباط بالخالق سبحانه، فنحن

أحوج ما نكون إلى ذلك في كل زمن حيث إبتعدت النفس البشرية عن فطرتها وطغت حاجات الجسد على حاجات الروح وانحدرت حياة المجتمع إلى الغرائز الحيوانية وإلى إنحطاط القيم والتي لا يصلحها إلا العودة إلى صفاء الروح عبر العودة إلى الخالق سبحانه.

في الهند الهندوس يرتكزون على فكرة الإله الواحد[١]:

الهند أيضاً هي أرض نشأت فيها المذاهب الروحية، ومن هذه المذاهب الهندوسية التي كانت تعتقد بوجود إله واحد. أما الإرتكاز على فكرة وجود إله واحد فهذه مسألة تشترك فيها أمم قديمة غير المذاهب الروحية والسبب في ذلك أنّ الإنسان في كل زمن كان يرى عظمة هذا الكون الفسيح، ويرى الآيات التي تفوق تصوره كالشمس الوهاجة والقمر المنير وتبدل الليل بالنهار فكان هذا الإنسان مع اختلاف الأمكنة والأزمنة يعترف ضمناً وبشكل خفي بوجود قدرة عظيمة فوق تصور هذا الإنسان وراء هذه الآيات وكان هذا الإنسان يعبِّر عن هذه القدرة بأشكال مختلفة وكانت هذه الأشكال المختلفة لتصوُر القدرة الإلهية مبدأ نشوء الأديان الوضعية عند الأمم.

ولكنّ الجامع بين كل تلك الأديان هو شعور النفس الإنسانية بفطرتها بالإنجذاب نحو هذه القدرة التي تعتقد بأنّها المؤثرة في كل شيء وأنّها تملك السلطة على الإنسان وتملك له النفع والضرر، فهذا الشعور لدى الأمم ليس إلاّ إدراكاً لوجود الله سبحانه ولكنه إدراك

(١) المصدر: كتاب دراسة مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة علي سليم بدر الدين.

تجلّى في صور مزاجية منحرفة وبعيدة عن الفكرة الأساس وهي الاعتراف بالله سبحانه، فلذلك كانت في كثير من الأحيان تبعد عن الله الخالق لأنّها طقوس نشأت كما يريد الإنسان لا كما يريد الخالق سبحانه ومنها هذه المذاهب.

فممّا ذكرنا تبيَّن أنّ وجود الخالق هو فطري في كيان الإنسان وذلك لإرتباط النفس المخلوقة والإنسان المخلوق بالخالق بطبيعة الخلقة لهذا الإنسان، فالأمم السابقة كانت طريقة تعبيرها عن ذلك تتبع أهواء الإنسان وبحسب نسبة مستواها الفكري الذي لم يرتقي إلى أكثر من ذلك. ثمَّ جاء الفلاسفة في هذه الأمم فاتّبعوا طريق الفكر البعيد عن الأهواء للوصول إلى الصورة الصحيحة عن الله واعتمدوا البرهان والدليل العقلي مضافاً إلى الدليل الحسِّي المحسوس، أمّا الذين سبقوهم والذين اعتمدوا فقط على الدليل الحسي المحسوس فقد اخترعوا اختراعات لفكرة الإله فضلوا الطريق وأحيوا أممهم في فترات جهل وظلمات حتى تبدل ذلك، فوصل الفلاسفة إلى النتيجة الصحيحة لوجود الله الواحد الخالق للكون وأعطوا أدلتهم وتطوّرت هذه الأدلة حتى وصلنا إلى عصر العلوم فزاد العلماء الدليل العلمي مؤيّدين بذلك اعتقاد الفلاسفة بالله.

هكذا نشأ في الهند المذهب الهندوسي المعتمد على فكرة وجود الإله الواحد ولكنه كما بيّنا كان هذا الاعتقاد يرتكز على المدركات المحسوسة للنفس وطقوس منحرفة ولا يرتقي إلى مستوى الاعتقاد الفكري المبني على فكر واضح مع الدليل والبرهان، وبنفس

المدركات للنفس يعتقد الهندوس بخلود الروح وبالحساب بعد الموت فهم يشتركون مع منْ أدرك أنّه لا يمكن أن تكون حياة الروح على هذه الأرض عبثية ولا يمكن أن تكون أفعال الإنسان في هذه الحياة غير خاضعة لقانون فلا بدّ أنّ الإله الواحد الخالق قد وضع قانوناً لأفعال الإنسان بعد أن تعترف بخلقه للإنسان واعطاءه إياه القدرة على فعل الخير ولكنه يتحرف إلى اختيار الشر. فلا بدّ إذاً أن تكون هناك حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على أفعاله وفق قانون الله وذلك لأنّ الإنسان صاحب الأهواء لا يمكن أن يحاسب الإنسان المماثل له في الخلق فلا بدّ أن تكون هناك سلطة تتولّى ذلك بعد الموت وهي الإله الواحد وهذا ما اشتركت عدة فلسفات ومذاهب روحية في الوصول إليه وهي الحقيقة النابعة من أنّ السلطة في هذا الكون يجب أن تكون بيد من صنع هذا الكون وصنع الإنسان. وهكذا اعتقدوا بشيء مشترك وهو وجود إله واحد خالق لهذا الكون بيده الحساب وهو مصدر الخير والعدل فوجود الله سبحانه جلي وهو ضروري لحياة الإنسان ولإبعادها عن العبثية، فمنهم من وصل إليه عبر العقل ومنهم عبر إدراكات النفس الحسية ومنهم عبر إرتباط الروح بصانعها وموجدها وهكذا نشأت المذاهب الروحية والاعتقادات الفكرية المؤمنة بالإله الواحد والحقيقة واحدة وهي أنّ الله سبحانه الخالق موجود وتأثيره على النفس والروح هو الباعث للحياة في هذه النفس وهذه الروح.

بوذا في الهند يوافق فكرة الإله الواحد

وكونفوشيوس في الصين يتبع طريق الفضيلة للوصول[1]

بوذا في الهند وكونفوشيوس في الصين هما أصحاب مذهبين روحيين من أكثر المذاهب انتشاراً في آسيا وقد انطلقا من مبدأ واحد وهو إصلاح النفس الإنسانية، فمن خلال التفكّر وملاحظة هذه النفس لمعرفة ما يسعدها وما يشقيها وما يصلحها وما يفسدها وما يجعلها ملائكية أو وحشاً مفترساً حدّد بوذا وكونفوشيوس الطريق التي يجب أن تسير عليها هذه النفس لصلاحها ووضعوا العلاج لها حتى أصبح ذلك طريقاً منتشراً في آسيا يلجأ إليها كل باحث عن سعادة هذه النفس.
هذا الطريق يتلخص بتربية النفس على صفات الخير والفضيلة وإتباع كل ما يساهم في ذلك فشجعوا كل ما يدفع هذه النفس إلى الخير وحذّروا ممّا يحرفها نحو الشر فلجأوا إلى التأمل والتفكّر كطريق لصفاء هذه النفس ولفهم هذا الكون ومعرفة أسرار الوجود المخبئة فيه لأنّ النفس عندما تعود إلى صفاءها فإنها سوف ترى الأشياء على شكلها الصحيح بما يصلحها ويوصلها إلى طمأنينتها وسمّوا هذا الطريق بطريق الحكمة وسُمّوا هم بالحكماء، فجعلوا لهم أماكن خاصة للتأمل والتفكّر بغية الوصول إلى الأسرار التي تتعلق بالنفس والروح والإنسان وغالباً ما تكون هذه الأماكن بعيدة عن الناس وبنوا هناك ما يسمّى بالمعابد حيث يلجأ إليها كل ساع إلى سعادة النفس وصفاءها.

---

(١) المصدر: قصة الحضارة لديورانت وتاريخ الإنسانية لأحمد حسين ودراسات مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة علي سليم بدر الدين.

إذاً فحقيقة المسألة واحدة رغم اختلاف الطرق إليها وهي إبراز وتنمية إرادة الخير في النفس الإنسانية والبحث عن كل ما يوصلها إلى ذلك، فكان كلّما غاص الإنسان في أسرار النفس والوجود المحيط بها كان لا بدّ له من إدراك وجود الخالق لأنّ هذا الإنسان مرتبط إرتباطاً شديداً بخالقه لأنّه سبب وجوده وسبب وجود هذه النفس أيضاً. وكانت هذه النفس تكتشف هذه العلاقة عند نظرها إلى البعيد وخارج الحدود الضيقة للحياة المادية فكان من الطبيعي أن يصل الحكماء أيضاً إلى هذه الحقيقة كما وصل إليها الفلاسفة أفليست الحكمة هي وضع الأمور في مواضعها، وأليس الاعتراف بأنّ لهذه النفس المخلوقة خالق له هو وضع الأمر في موضعه الصحيح من حقائق الوجود. وهكذا وصل الحكماء أيضاً لهذه الحقيقة فأقرّ بوذا الهندوسيين الذين سبقوه على فكرة الإله الواحد لهذا الكون، وأعظم هذا الإله وأقترب أكثر إلى حقيقته وبأنّه لا تحدّه صورة ولا شكل فمَنَع الهندوسيين من تمثيل الإله عن طريق التماثيل وأعتبر بأنّ الإله للنفس والوجود أعظم من أن يتمثل بتمثال فهذا يتنافى مع فكرة الإله الخالق، ولكن الهندوسيين عادوا إلى التمثيل بالتماثيل بعد موت بوذا وهذا ما نراه في وقتنا هذا في مناطق آسيا.

فنستطيع بعدما ذكرنا أن نُدرج بوذا وكونفوشيوس في نطاق المذاهب الإصلاحية التي نشأت في المجتمعات لإصلاح النفس الإنسانية والمجتمع لأنّها ظهرتْ في مجتمعات كان يحكمها ملوك متّبعين طريق التسلط والظلم. فنظر بوذا إلى الآلام والشقاء الذي تعاني منه النفس الإنسانية ورأى أنّ سبب هذه الآلام هي الشهوات والغرائز

الموجودة في الإنسان وأنّ التخلص من هذه الآلام يتم بترفع النفس عن الحياة الحيوانية الغرائزية وعن الشهوات وبالابتعاد عن الحياة المادية وبالزهد في هذه الدنيا وتهذيب هذه النفس على الخير فيقول: «لسنا في الحقيقة سوى ثمرة لما يدور في تفكيرنا وعندما يتكلم الإنسان أو يتصرف بفكرة شريرة فإنّ الألم يتبع ذلك على الفور، وإذا تكلم أو تصرّف بأفكار خيّرة فإنّ السعادة تتبع ذلك كما يتبع الظل الشيء»(١).
كونفوشيوس أيضاً أتبع نفس السبيل لهذه النفس فرأى بأنّ الفضيلة والأخلاق والإتصاف بالصفات النبيلة هي الطريق للسمو بالنفس الإنسانية والمجتمع الإنساني إلى الدرجات العالية في الصلاح والخير وللوصول إلى المجتمع الذي يحقّق للإنسان ما يأمله من طمأنينة وسعادة.

النتيجة في النهاية هي أنّنا نلاحظ أنّ بوذا وكونفوشيوس ارتكزوا على ما جاء به الأنبياء من إبراز صفة الخير في النفس الإنسانية وأنّها الطريق إلى سعادة الإنسان فردّدوا بذلك ما قاله أصحاب الفلسفات والمذاهب العقلية فعندها نتساءل كما تساءل سقراط بأنّه هل من الممكن أن تتفق كل هذه المذاهب والفلسفات على نفس المسلكية لاصلاح النفس وعلى خصائص النفس إذا لم يكن صانعها واحد وواضع صفات الصلاح فيها واحد وإلا كيف يصل كل باحث في مسائل النفس إلى نفس النتيجة أليس في ذلك دليل على وحدة خالقها

---

(١) المصدر: كتاب دراسة مقارنة موضوعية حول العقيدة الإسلامية للدكتور في الفلسفة علي سليم بدر الدين.

وكما قال سقراط هل من الممكن أن تتفق الأمم على خطأ الإيمان بإله واحد أصل لكل الفضائل، فهذا من غير المعقول فلا بدّ إذاً من العودة إلى مصدر الخير في النفس والباعث إليه وإلى الملهم للنفس وواضع قوانينها وهذا ما اعترف به الفكر الإنساني رغم اختلاف الطرق للوصول، وهو أنّ الله موجود وهو المصدر الملهم للإنسان وللنفس الإنسانية وهذا ما أكده كلام العلماء والفلاسفة والحكماء.

تمّ في جمادي أولى ١٤٢٦ هـ





الفهرس

الموضوع	الصفحة